

في التصوف والمتصوفين

الطبعة الأولى

للأستاذ
محمد فتحي حفظ قورة
جامعة الأزهر
ووكيل ثانوي

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ ش عدلي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

صدق الله العظيم

إهداء إلى :

المتصـــوفين

* الذين تجردوا من الشهوات المنحرفة فأخلصوا لله
* الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه
* الذين نذروا أنفسهم لإضاءة الحياة بنور الله
* الذين كان من مبادئهم « لا تصاحب إلا من ينهض بك حاله ويدلك على الله مقـاله »
* الذين يقولون : رب معصية أورثت ذلا وانـكسارا خير من طاعة أورثت عجباً واستـكبارا — وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين التياهين
* الذين اهتدوا إلى ما فى القرآن الـكريم من الحق ولم يختلفوا فى أنه الحق فزادهم هدى الاستقامة على طريق الحق .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فإن التصوف يعنى التجرد الخالص لله والارتفاع بالروح الإنسانى إلى أعلى مستويات الكمال بجهاد النفس ومقاومة الشهوات .

والصوفية فى أصلها تعنى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذات ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بلغ رشده إلى أن هبط عليه الوحى – يعيش فى نسك دائم فى حياته العامة والخاصة ، يبحث عن الحقيقة الدينية فى أعلى وأكرم مستوياتها، ثم حبب إليه الخلاء فى غار حراء حتى جاءه اليقين من ربه وقام يبلغ رسالته جل وعلا .

والتصوف الدينى المحض هو الذى لا يخرج عن حدود الكتاب والسنة والذى يمثل اتجاه بعض المتعبدين إلى حياة الزهد والتقشف والتأمل كما هو الحال عند الأولياء من العلماء الصالحين .

وقد نوه الله سبحانه وتعالى بشرف المستجيبين لدعوة الحق فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم .

والتصوف خلق (فمن زاد عليك بالخلق فقد زاد عليك فى التصوف) وهو ما يدلنا على أن استجابة السادة الصوفية لله تعالى إنما هى استجابة خواص المؤمنين وهم السابقون بالخيرات بإذن الله — وهذا هو التصوف الذى أريد التحدث عنه .

وقد دفعنى إلى الحديث عن التصوف — الرغبة فى مواصلة الدعوة إلى الله — بعد أن أخرجت كتاب (التقوى فى القرآن) أوضحت فيه الجانب الروحى فى مجالات التقوى (فى العبادات التى يتخذها المؤمن وسيلة للتقرب إلى الله — وفى المعاملات على اختلاف أنواعها) هذا إلى توضيح طريق التقوى للمحبين ممن يعشقون الله ، وقد لاحظت هذه الأيام حملات تشهير بالتصوف وأخشى أن تتحول الدعوة إلى محاربة ما هو باطل إلى التجنى على ما هو حق — والخلط بين الباطل والحق يسىء إلى قيم نبيلة وربما يسىء إلى الدين ذاته لهذا قمت بإخراج هذا الكتاب وجعلت عنوانه (مع الله) ليعيش قارئه دائماً مع الله (أوضح له طريق الكشف القلبى وأضرب له المثل بالكثير من حياة المتصوفين ومنهم الإمام الغزالى وكيف عرف الطريق إلى الله) .

ثم أوضحت معنى التصوف وحياة المتصوفين وتحدثت عن حياة إمام العابدين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكيف كانت حياته وكيف اقتدى به أصحابه وتابعوه ومحبوه .

وأخيراً أنهيت الكتاب بالآراء التى نشرت بالصحف حول التصوف والمتصوفين وأوضحت ما اختلف فيه الباحثون — لعل المتجنين يعودون إلى الصواب .   والله أسأل أن يهدينا سبل الرشاد .

المؤلف

محمد فتحى حافظ قوره

خريج جامعة الأزهر — ووكيل ثانوى

شبرا مصر فى أول المحرم سنة ١٣٩٦

٢ يناير سنة ١٩٧٦

تمهيد

التصوف

كثر الحديث عن التصوف وعن المتصوفين هذه الأيام بعد أن ظهر تطرف المتطرفين وإساءة المسيئين إلى هذه العبادة الروحية الصافية .

فالتصوف الإسلامى ليس فى جملته وتفصيله إلا فلسفة روحية إسلامية خالصة مستمدة من كتاب الله وشريعته ومستهدية بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وسنته ، فإن قوام هذه الفلسفة الروحية الإسلامية الخالصة إنما هو فيما تأخذ به وتدعو إليه من تخلق وتذوق - ويرمى كله إلى تقويم الإنسان وسعادته .

ومع هذا فقد تصرف المغرضون تصرفات شاذة تحت ستار الصوفية مما أساء إلى قدسية هذه العبادة القائمة على الزهد فى ملذات الحياة وشهوات النفس والعزوف عن الدنيا .

قال حارثة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم (عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها ! ولهذا أشعر بالحرية الكاملة والسعادة الحقة) .. ومن أقوال الصوفية (الحرية ألا يكون العبد تحت رق المخلوقات ، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء فتتساوى عنده أخطار الأغراض) .

ومعنى ذلك أن تتساوى عندهم جميع الأشياء فى هذه الحياة الدنيا ثم بعد استوائها يزهدون فيها جميعا (لأن معنى الدنيا ليس شيئا) ثم بعد ذلك يعرضون عن الدنيا ويقبلون على الآخرة .

ويشير إلى ما كان يردده بعضهم (الإعراض عن الكل والإقبال على من له الكل) وهذا مقام عزيز المنال لا يقوى عليه إلا صفوة الصفـــوة .

والدين الإسلامى جاء لهداية البشر كافة وخطاب الناس جميعا — ولهذا السبب كانت المغالاة فى التصوف بعيدة عن روح الإسلام منافية لواقع الحياة .

فقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم — على عثمان بن مظعون رهبانيته وشدد على عبد الله بن عمرو بن العاص حين أزمع أن يصوم الدهر وحين غلا فى قراءة القرآن وأراد أصحابه على أن يأخذوا دينهم بالرفق (فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى) بل بالغ النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك حتى استخفى من أصحابه ببعض عبادته مخافة أن يشق عليهم وأن يتقيدوا به فيتكلفوا ما لا يطيقون — ونهاهم أن يواصلوا فى صومهم فيصوموا الليل والنهار جميعا ـ فلما قالوا له : إنك تواصل — قال (إنى لست كهيئتكم ـ إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى) يريد بذلك أن الله قد منحه من القوة والجلد على عبادته ما لم يمنحهم .

وقد عرف التصوف ـ بالمعنى المألوف ـ فى أواخر القرن الأول الهجرى ولم يلبث أن تأثر بما عرفه المسلمون من الثقافات الأجنبية .

وتحول الزهد من تفرغ للعبادة وإمعان فيها ـ إلى محاولة الاتحاد بالله أو الاتصال به أو معرفته عن طريق الإشراق واختلاط الصوف بمذاهب الباطنية الفاسدة ـ ولقد تحدث الكثير منهم عن الزهد ـ ويرون أنه (الطريق إلى الله وله أثره فى إدراك الإنسان لما فوقه لأنه المخلص له من دنس العالم وبالتالى عائد به إلى جوهره الروحى الصافى) ـ فيشبه

حينئذ تلك الجواهر التى علته فى المنزلة عندما غطى هو بالقشور .

هذا والمتصوفة لهم دور كبير فى المجتمعات الإسلامية فهم لم يبعدوا عن الحياة ومشا كلها ولم يكونوا سلبيين فيما يتعلق بقضايا الناس وكانوا يؤدون النصيحة لكل مسلم فقد كان ولاؤهم لله ولرسوله قبل كل شىء .

مثال ذلك ما قاله محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز — (إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ابنا — فوقر أباك . وأكرم أخاك وتحنن على ولدك) وكتب إليه أحدهم قائلا (يا أخى أذكرك بسهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ... وإياك أن ينصرف بك الهم عند الله عز وجل فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء) .

وقال أحد المتصرفة المعاصرين : إن ما نحن فيه من الآفات مرجعه إلى التقصير فى الطاعات — فصرنا ننام حيث كانوا يسهرون — ونكسل حيث كانوا ينشطون — ونلغو حيث كانوا يذكرون — فران على قلوبنا ما كسبنا من الغفلة .

وإن كل طريقة من الطرق الصوفية اليوم أحوج ما تكون إلى أن تتماسك أجزاؤها ويشد بعضها بعضـــا — فإذا نجحت كل طريقة فى وحدتها شدت أزر غيرها من الطرق — مادامت وجهتهم فى الدعوة إلى الله خالصة لوجه الله .

وليذكر المدعون للتصوف —والتصوف منهم براء — ان التصوف هو (إيثار الله على ما سواه طلبا لرضاه) — فإن لم يستطيعوا ذلك فليفسحوا طريق التصوف لغيرهم ممن خافوا مقام الله ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ — من سورة

النازعات ــ هذا — والتصوف يدعو إلى تقوية الروابط الإنسانية بالتسامح فقد روى أن الإمام عليا زين العابدين — كان إذا بلغه عن أحد أنه ينقصه - أو يعيبه ــ يذهب إليه فى منزله ويتلطف به ويقول (يا هذا . إن كان ما قلته فى حقاً ــ فيغفر الله لى ــ وإن كان باطلا فيغفر الله لك)

فما أحوجنا اليوم إلى التحلى بمثل هذه المكارم الخلقية فقد غلبت الأهواء وساءت العلاقات بين بعض الناس وأصبحنا فى حاجة إلى القيم الخلقية ، التى جاء بها رسولنا الكريم ودعا إليها فى كل مناسبة فهو قدوتنا وإمامنا .

ولقد استمسك النبى عليه الصلاة والسلام بمحاسن الأفعال ولهذا امتدحه الحق تبارك وتعالى فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

الباب الأول

مع الله

قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم — وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (١)

(الله) حينما يذكره الإنسان يشعر براحة نفسية تسيطر على حواسه وبقوة تامة تملأ جوانب نفسه ، ويرى نورا يضىء له كل ما حوله ، ويحلق بفكره فى عالم علوى يسلب لبه ، ويجذب إليه روحه ، ويشعر أنه انتقل من عالم المحسات إلى عالم المغيبات ، ويتخيل تلك اللحظة الجليلة التى عاشها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فى ضيافة رب العزة ليلة المعراج — وقد تجلى المولى بأنواره القدسية — فخر ساجداً خاشعاً يسبح ربه وقد اضطرب فؤاده واهتزت جوارحه ، رغبة ورهبة وما رفع رأسه من سجوده إلا بعد أن سمع نداء غطى سمعه واهتزت جوارحه « ارفع رأسك وسل تعط »

وما كان له أن يبلغ هذه المنزلة لولا فيض الله برحمته وترحيبه بحبيبه وتأييده لصفيه ورسوله .

ولقد أراد موسى من قبل أن يحظى بنعمة الفيض الإلهى ، وطلب من ربه أن يراه — فقال ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ فأجابه المولى عز وجل ﴿ لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾ .

---

(١) الآية ٢ من سورة الأنفال

فلم يستطع الجبل أن يثبت لأنوار ربه فتزلزل وارتجف واضطرب فزعا ورهبة واندك خشية وخضوعا (وخر موسى صعقاً) سقط مغشياً عليه ولم يستطع الصمود لأنوار ذاته القدسية .

(فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك)(١) أناب إلى الله وطلب منه الصفح والغفران ، لجرأته على طلب رؤية الحق تبارك وتعالى وما كان له أن يطلب رؤية ذات تجلت عن الوصف وتعالت عن الكيف ويسأل مالم يؤمر به .

وطلب قومه ذلك منه طلبوا رؤية الله عيانا ﴿ فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾(٢) . وانتشرت النار فى كل مكان تصعق هؤلاء الطغاة وترد أمثالهم إلى الصواب ، فكيف لعبد ذليل غير رسول أن يتطاول فيطلب رؤية الخالق الأعظم الذى خلقه فسواه فعدله فى أى صورة ما شاء ركبه ؟! — ألا فليتنبه أولئك الذين يدعون رؤية الله كما يزعمون وما الله بغافل عما يقولون .

والله هو وحده الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل ، وبتوجيهه تمكن الإنسان من البقاء على ظهر البسيطة ، ومن البقاء فى مجتمع ، ومن الوصول إلى ما هو عليه من مدنية وحضارة — ولكن كيف تمت تلك الهداية الإلهية ؟

ذلك سؤال ليس له إلا جواب واحد — فما دامت القيادة الطبيعية فى الإنسان — عقله وشهوته — غير كافية فى توجيهه إلى سبل الرشاد

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٥٣ من سورة النساء

وما دام العقل وحده غير كاف في تعرف كثير من الأسرار الإلهية — فإن التوجيه كان لابد أن يأتي من الله وعن طريق آخر غير العقل ولكن يظاهره ، وذلك الطريق هو الوحي ، فهو الذي عرف الإنسان بنفسه والله هو الذي أرسل أوامره للانسان وحيا إلى من اصطفى من عباده .

بيد أن الرسل كانوا لا يرسلون في سلسلة متتابعة على مر الزمن ومن غير فواصل زمنية ، بل كانت هناك فترات — تطول أو تقصر — حسبما يرى المرسل من حكمة — بين الرسول وبين من يليه

وكان الناس في تلك الفترات يعبثون بالعقائد والعبادات ويغيرونها — والعقيدة الدينية وحي إلهي — والانسان مستعد بطبيعته لقبوله ، إذ أن كلا من عقله ووجدانه يدفعه إليه .

فهو مدفوع لأن يعتقد ، وهو يريد أن يعتقد ، وهو يسعى لتحقيق ما يريد ، فاذا لم يصرفه عن الفطرة الدينية صارف — اندفع إلى الحق بيسر وسهولة . وهناك طريق الكشف القلبي — تلك القوة الروحية التي يمتاز بها بعض الأشخاص عند صفاء نفوسهم ، حيث تتجلى لهم الحقيقة ولا يجدون حاجة إلى برهان (١)

وذلك لأن النتيجة التي ينشدونها تكون حاضرة لهم يرونها رأى العين ولا تحتمل الشك — كما قالت السيدة رابعة العدوية حينما سئلت أن تبرهن على وجود الله — فأجابت (ومتى غاب عن القلوب) ؟!

منهج الصوفية :

وأعلم أن القلب إذا طهر من أدران المعاصي وصقل بالطاعات

---

(١) ٢٣٣ — الحياة الوجدانية

أشرقت صفحته فانعكس عليها أنوار الهداية الربانية ما شاء الله أن يكون. وهذا هو العلم المعروف (بالعلم اللدنى) أخذا من قوله تعالى ﴿ وآتيناه من لدنا علما ﴾ سورة الكهف ، وفسروا الرزق فى قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ سورة الطلاق — بالعلم من غير تعلم — هذا هو منهج الصوفية (تطهير من المعاصى وصقل بالطاعات)

كيف عرف الغزالى الطريق الى الله :

وقد طبق الغزالى هذا المنهج على نفسه حتى طهر فصقل قلبه — ولهذا قال : « وانكشف لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إخفاؤها واستقصاؤها — والقدر الذى أذكره لينتفع به — أنى علمت يقينا — أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى — خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه — لم يجدوا اليه سبيلا — فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ... وأنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد »(١)

وهكذا عرف الغزالى الطريق إلى الله ورسم لنا الطريق الموصل إليه ، فعلينا أن نسلك كل طريق سلكه كل من وصل إلى الله وشعر بالسعادة والبهجة فاللقاء مع الله بذكره دائما لا تعدله سعادة .

(١) إحياء علوم الدين للغزالى

والمؤمن التقى هو الذى يقضى أوقاته كلها فى ذكر الله وخشيته لا تشغله أهواء أو رغبات — يناجى ربه دائما ويطلب منه أن يمنحه الرضا بما قسم له وأن يملأ بالقناعة قلبه حتى لا يشغل بالدنيا وزخرفها .

ولقد كان من مناجاة أحد الصالحين (يارب أذقنى حلاوة رضاك والإحساس بعفوك ياأرحم الراحمين — سبحانك لا اعتراض على حكمك تبسط الرزق لمن تشاء — تضل من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين)

وقال صلى الله عليه وسلم « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ومن الممكن أن يفهم ذلك أيضا من القرآن الكريم حين يوجهنا إلى النظر فى نفوسنا لننتقل منه إلى الايمان بالله — فيقول : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ سورة الذاريات .

مازينى يتحدث عن الله :

ولقد تحدث أحد ساسة إيطاليا(١) واسمه (مازينى) حين كان يتحدث عن الله فقال « إن الله موجود — ولست أحاول البرهنة على وجوده فقد يستلزم ذلك كفراً به وإلحاداً — الله موجود — لأننا موجودون وهو موجود فينا وفى شعور الإنسانية جمعاء وفى كل ما يحيط بها من عوالم وإنا لنشعر بذلك فى كل الأوقات — فنشعر به فى ساعات الضيق والشدة كما نشعر به فى حالات السرور والنعمة ، ولم يكن أول ملحد فى الأرض إلا أحد هؤلاء المجرمين الذين أخفوا جرائمهم عن كل الناس — وظنوا أنهم قد يتخلصون بانكارهم لوجود الله — من شهادة الشاهد الذى لا تخفى

---

(١) ٢٧٣ — الحياة الوجدانية

عليه خافية ، ومن وخز الضمير الذى يلازمهم ويؤنبهم ، ولعله كان من الجبارين الذين كانوا يعيثون فساداً فى الأرض فتحكموا فى أرواح الناس وفى حرياتهم وحاولوا أن يتحكموا كذلك فى توجيه خضوعهم وعباداتهم فألهوا أنفسهم أو ألهوا ما شاءوا من المواد والطبائع — ولقد جاء بعد هذا الصنف من الناس آخرون أدى بهم الانحراف الفلسفى وقصر النظر - إلى تكوين نظريات إلحادية ولكنهم كانوا من القلة بمكان ، وكان يمنعهم الخجل والحياء من الظهور .

وجاء بعد هؤلاء آخرون أنكروا الله ووجوده ... ولكن لم يكن ذلك الإنكار إلا لأجل محدود ... ويبغض بعض الناس الأديان لما اتصل بها من فساد من غير تفرقة بين الخبيث والطيب ولكنهم لم يكونوا على حق فليس لنا أن ننكر وجود الشمس وأثرها فى الحياة الأرضية حين يحجبها عنا البخار المتكاثف — وليس لنا أن ننكر الأديان كذلك لأنه قد أسىء استعمالها — وذلك لأن لها من القوة الذاتية ما يسمح له بالخلود ، ولا بد أن يموت الكذب يوما ما ولا بد أن تفتضح الأباطيل وينكشف أمرها ويبقى اسم الله مطهراً من جميع الأرجاس وخالدا أبد الآبدين وذلك هو سر بقائه الخالد فى النفوس .

وإذا كان الله موصوفا بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد فذلك لأنه حاضر حضوراً كأنه حضور مشاهدة عند كل حاسة من حواسنا ومعروف لكل قوانا — فيعرفه العقل ويدركه القلب ويشعر به الوجدان وليس له مكان خاص فى الجسم (جسم الانسان) ولكنه حاضر حضوراً دائما غير محدود بزمن أو مكان — وأما حبل الوريد فذو مكان معين محدود ولا تتوجه إليه النفوس إلا نادراً .

رائد الفضاء وأثر رحلته :

ولنستمع إلى رائد الفضاء الأمريكى (جيمس أروين) الذى قاد سفينة الفضاء أبوللو عام ١٩٧١ — وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية فى علوم الفضاء وقد زار القاهرة أول عام ١٩٧٥ — وسئل عن أثر اشتراكه فى رحلة الفضاء على إيمانه بالله — على أساس أن الذهاب بعيدا فى بحور العلم يؤدى أحيانا إلى الإلحاد — فقال : بالعكس — لقد أدى نزولى على سطح القمر إلى زيادة إيمانى بالله وزادت العقيدة عمقا فى نفسى .

فقيل له : لكن رائد الفضاء السوفيتى (جاجارين) قال بعد أول رحلة له حول الأرض — إنه بحث عن الله فلم يجده ! !

فقال : أنا لا أعرف إذا كان جاجارين صرح بذلك أم لا ولكن أحب أن أوضح — أن الإنسان لا يمكن أن يرى الله بعينه كما يرى سائر الكائنات ، وأنا أيضا لم أر الله فى رحلتى من الأرض إلى القمر — ولكنى شعرت به وإزداد إيمانى بوجوده وبقدرته وبقوته فهذه الكواكب والنجوم التى تسبح فى الفضاء اللانهائى بنظام رائع وبديع ومحكم لا يمكن أن يكون قد حدث تلقائيا أو بمحض الصدفة ولكن لابد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هى التى تتولى تنظيم حركة الكواكب والنجوم فى الفضاء وهذه هى القوة الالهية .

هذا ما صرح به رائد الفضاء — وعلينا أن نذكر قول الله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ سورة فصلت .

فالنظام المتمثل فى الكون — والذى يستحيل أن يكون بفعل

المصادفة ـ يستلزم قطعا وجود خالق أبدع ونظم ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ سورة الفرقان .

الاسلام دين عقلى :

والإسلام دين عقلى لأنه يحث على استعمال العقل وعلى التفكير والتدبر والتبصر ويطالب الانسان أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض حتى يتوصل إلى أسرارها الدقيقة وأن يتعمق فى البحث ـ ليصل إلى الحقيقة ـ ويدعوه القرآن الكريم ـ إلى ذلك فى غير موطن فيقول مثلا ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾(١) .

ويقول : ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ سورة الحج .

ثم ينكر على هؤلاء الذين لا يفكرون — قائلا : ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ من سورة الفرقان .

ثم يؤكد النظر ويجعله شرطا لصحة الايمان ويذم اتباع الآباء والأسلاف وينهى عن التقليد والخضوع الأعمى للسادة والكبراء — ويقبح الظن فى مسائل الإيمان فيقول ﴿إن هم إلا يظنون﴾ - ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ من سورة الزخرف .

---

(١) الآيتان ١٩٠ - ١٩١ من سورة آل عمران .

ولقد بلغ من حث الاسلام على استعمال العقل وعلى التدبر والنظر - أن قال بعض العلماء (إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج).

فالاسلام يحث على النظر ويتطلب المعرفة ويهدف إلى تربية ملكة النظر ويحاول النهوض بالعقل الانسانى حتى يبلغ غايته من كمال المعرفة وحتى يبعث المرء على أن يعمل الخير لأنه خير وأدرك ما فيه من خير — ويتباعد عن الشر لأنه شر كذلك

فهدف الاسلام تربية العقل والوجدان معا - أو تربية العقل أولا - وعن طريقه يتربى الوجدان .

فالاسلام يعتمد على احترام العقل الانسانى والسمو به عن أن يتورط فيما لا يفهم - لهذا نفى التفكير فى ذات الله وأمر بالتفكير فى آثار قدرة الله وصفاته (لا تفكروا فى ذات الله ولكن فكروا فى صفاته فإن من كان قبلكم فكر فى ذات الله فهلكوا) .

وقـــد قص الله علينا ما كان من نقاش بين موسى عليه السلام وفرعون حين أعلنه بأنه رسول رب العالمين ﴿ قال فرعون وما رب العالمين - قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين - قال لمن حوله ألا تستمعون - قال ربكم ورب آبائكم الأولين - قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون - قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون - قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين﴾(١) .

لقد أراد فرعون أن يمكر بموسى وأن يوقعه فى ورطة (قال فرعون وما رب العالمين) — فسأل عن حقيقة رب العالمين لأنه سؤال

---

(١) الآيات ٢٣ - ٢٩ من سورة الشعراء .

بما لطالب الحقيقة — فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول المحال ولو سكت عن الجواب لبان العجز — ولقال له فرعون أنت رسول لمن لا تعرفه ، ولكن موسى رد على فرعون ردا حكيما ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ فكأنه قال له : ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته فذلك فوق عقلك وفوق إدراكك وفهمك — ولكن سل عن آثاره لتعلم أنه رب كل شيء فى السماء والأرض وما بينها (خلقا وتصريفا وحكما وعلما) وهذا هو الجواب الحق لأن ذات الله تعالى يستحيل أن تعرف بالماهية فلم يبق إلا أن يعرف الله بآثاره وفعاله وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ ﴾ يعنى فلتعجبوا له — أنا أسأله عن حقيقة رب العالمين وهو يجيبنى بنسبة الآثار إليه وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر ﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وفيه أيضا توجيه لعدم إمكان السؤال عن الذات مع انتقال إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول ، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهذا أقرب قبولا وليس من السهل إنكاره ، ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال واشتد فى هذه المرة ما لم يشتد فى المرة السابقة ﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ أى فهو لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب .

وهنا أجابه موسى بأثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحا ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار ، والمغرب يشير إلى غروبها ومجىء الليل ، وهذان أمران دائمان مستمران لا شك أنهما من تدبير وقدرة مدبر قادر

وهنا عجزت حيلة فرعون فى استدراج موسى - فخرج عن المناقشة إلى التهديد بالقوة ﴿ قال لئن اتخذت إلهـــا غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾

فى هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون - وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والضلال - على محاولة البحث عما لا سبيل إلى معرفته ليتخذ ذلك سبيلا إلى الفتنة والتشكيك وإلقاء الريب فى النفوس المستعدة لذلك : ويظهر لنا اصرار موسى - وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية - على الاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته . وهذه ولا شك سبيل المؤمنين .

وحين يتعرف الانسان إلى الله عن طريق صفاته سيجد أن القرآن الكريم يصفه بمجموعة من الصفات هى المعبر عنها بالأسماء الحسنى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾(١) ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » ومنها ما جاء فى ختام سورة الحشر ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ومن تتبع القرآن الكريم استطاع أن يأخذ منه كثيراً من الأسماء الحسنى مثل : -

(الرحمن الرحيم القدير العليم الحكيم العظيم الحليم الودود الحميد المجيد الوهاب الباسط القابض الرقيب الحسيب) وغير ذلك .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف

وواضح أن قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحصاها دخل الجنة » ليس معناه من عدها أو حفظها ، أو من تلاها ، ولكن معناه (من وعاها ووعى المؤمن بها المصدق بثبوت معانيها لله تعالى على وجه الكمال) وهذا يقتضى درسها والتأمل فيها وتتبع مظاهر كل صفة منها فى هذا الكون والتخلق بأخلاق الله فيها حتى يصل إلى مرتبة من الإيمان ومنزلة من اليقين تدفعه إلى سلوك الصراط المستقيم الذى يأخذ بيده إلى الجنة ، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويلاحظ أن هذه الصفات أو الأسماء الحسنى - مرتبط بعضها ببعض فى مهمة التعريف بالله - وقد يدل على ذلك مجىء الأسماء الحسنى فى القرآن الكريم متتابعة دون حروف عطف غالبا ﴿ وهو الغفور الودود - ذو العرش المجيد - فعال لما يريد ﴾ من سورة البروج .

فكأن كل اسم هو قيد فيما قبله مقيد بما بعده ، وكأنها كلها صفة واحدة مندمجة من عدة صفات .

والقرآن الكريم يتحدث عن مظاهر تصرفه وقدرته وحكمته ومشيئته ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون — خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين - والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون - ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون - وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم - والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون - وعلى الله قصد السبيل ومنها جائرولو شاء لهداكم أجمعين - هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون — ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن

فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ـ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(١).

وحين يتعرف الانسان إلى الله عن طريق مشاهداته لتصرفاته وبدافع من آياته ـ يؤمن به إيمانا كاملا .

ولهذا يتبع القرآن عادة كل مجموعة من هذه المظاهر والتصرفات ـ بالاشارة إلى خالقها ومصرفها وأنه هو الذى يستحق أن يعبد . ويوحد ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل﴾ من سورة الأنعام .

وحين ينظر الانسان إلى تحديد العلاقة بينه وبين ربه يجد أنه لا يكلفه إلا بما فيه مصلحته وبما يكفل سعادته فى الدنيا والآخرة وأنه يشرع تكاليفه فى دائرة طاقته والرحمة به ، وبذلك يحبه ويحترم تكاليفه التى لا تخالف منطقه البشرى ومن هذا كله نجد أن الإيمان بالله ـ وهو الدعامة الأولى فيما تستقيم به حياة الانسان ـ ليس مجرد نظرة قلبية عرفانية ـ بل هو عقيدة توجيهية إيجابية فعالة .

والإسلام دين عقلى لأنه قد راعى قوانين العقل فى كل ماجاء به من شرائع وعقائد ـ فقضاياه وأحكامه وتكاليفه وأوامره ونواهيه موجهة للعقل ومعروضة عليه لينظر فيها ويقبلها عن بينة وتدبر واختيار ، وذلك لأنه مطمئن إلى صحة كل مافيه من شرائع وعقائد ، وواثق بأنه ليس فيها ما يأباه العقل أو يستعصى على الفهم أو يتعقد على الإدراك ، وليس على المرء إلا أن ينظر فيما يأمرنا به بتدبر وإمعان مجرداً عن الهوى والتعصب

---

(١) الآيات ٣ — ١٢ من سورة النحل .

ليرى كيف أنه يتفق وقوانين العقل الخالص - وليس على الرسل إلا أن تهيىء السبيل للنظر والتدبر ولقد جاءت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده - وقد كانت هى دعوة الرسل السابقين قبل تحريفها من الدعاة إليها ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ من سورة الأنبياء .

جاءت هذه الدعوة لتعيد إلى الانسان قيمته ولتصحح له وضعه فى الحياة والوجود ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ من سورة الحج .

والمجتمع المؤمن بالله وحده — هو المجتمع الانسانى المتحرر — هو المجتمع الذى فصل فى وعى ويقظة بين الإنسان ككائن مخلوق متميز وبين كائنات أخرى يعدها مسخرة له .

والمؤمن الذى ارتبط بربه وعرف فضله عليه وأنه فى حاجة إلى رحمته ورعايته فى كل لحظة من حياته وفى كل ذرة من جسمه وأنه بيده الخير وهو على كل شىء قدير — وأن المصير إليه والحساب بين يديه والعفو والمغفرة مردها إليه ، إن هذا المؤمن لابد وأن يحب الذى أنعم عليه ورعاه — ويأمل فيما عنده من خير ورحمة — وحينئذ تراه مندفعا إلى العمل بصدق إيمانه — فالحب لله والخوف منه — والرجاء فى رحمته والعمل لرضاه — آثار لازمة لمن آمن بالله إيمانا ملك عليه زمام قلبه — ويتحدث عنهم القرآن الكريم فيقول : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون — فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ من سورة السجدة .

وعن أنس رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يحتضر — فقال له (كيف تجدك ؟) فقال : أرجو الله تعالى يارسول الله — وأخاف ذنوبى — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو وأمّنه الذى يخاف) .

وروى أن جبريل عليه السلام — سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإحسان — فقال (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وتلك هى المراقبة — أى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فالله مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد — قائم على كل نفس بما كسبت ، يعلم ما تكنه القلوب .

قال تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(١) .

وهذه إشارة إلى المراقبة والمحاسبة على ما مضى من الأعمال فإن عمل الإنسان خيرا شكر الله على توفيقه إياه ، وإن أخطأ توجه إلى الله بالتوبة ، والله واسع المغفرة — وبذلك تطهر النفوس وتقوى صلتها بالله ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾(٢) .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الحشر .

(٢) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .

التصوف

التصوف (صفة تطلق على صفاء نفوس أهل التقرب من الذات العلية الأثيرين عند الله تعالى) .

والصوفية كما يقول ابن تيمية لفظ لم يكن مشهورا فى القرون الثلاثة الأولى — إنما اشتهر التكلم به بعد ذلك .

وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة — كالإمام أحمد بن حنبل وغيره — وقد أدرك الحسن البصرى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقال (رأيت صوفيا فأعطيته شيئا فلم يأخذه) — وقال ابن القيم (إن التصوف مبنى على الإرادة وهى حركة القلب ولهذا سمى علم الباطن) .

قال ابن أبى الحديد (ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصرف - وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الإسلام إلى الرسول ينتهون وعنده يقفون) — وقد صرح بذلك الشبلى والجنيدى وأبو زيد البسطامى وأبو محفوظ الكرخى وغيرهم .

وادعى فريق من الباحثين — أن الصوفية نسبة إلى أهل الصُّفَّة وهم جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم هاجروا إلى المدينة فلم يجدوا مكانا يجمعهم فاجتمعوا فى الصفة (وهو الموضع الظليل فى المسجد) .

والمتصوفون : قوم آثروا الإلهام على العلم (فهم لا يؤمنون بالنظريات والأدلة والبراهين فقط بل بجهاد النفس والطاعة والإخلاص والإيمان) وهى أمور تنشأ عنها صفات وأصول لها نتائج — وثمرات ترقى إلى مقام التوحيد والعرفان .

والصوفية : فناء أكيد فى الذات وسمو فى المعرفة وخلاص فى الإيمان وارتقاء فى معارج القرب .

فالمسلم يقرأ خلاصة العلم الذى يعلمه دارس الحكمة الإلهية حينما يقرأ قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ من سورة الشورى .

ويقرأ قوله تعالى ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾(١) — يعلم أن الفرار إلى الله هو باب النجاة .

الفرار الى الله :

هذا وقد رأيت فى منامى رؤيا لا زالت تراودنى — وكان ذلك وأنا فى مكة المشرفة وفى البلد الطيب التى شع فيها نور الإيمان — هذه الأرض التى تتردد فى أجوائها أصداء بعيدة — قريبة لتلك الانتفاضة الروحية القوية التى انشق عنها ضمير الوجود منذ أربعة عشر قرنا من الزمان فغيرت معالم التاريخ وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق - ففى ليلة التروية وهى ليلة الثامن من ذى الحجة عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين هجرية — رأيت فى منامى شبحا يشع منه النور فى كل مكان من حوله - ولم أتحقق من شخصه - مقبلا علىّ قائلا (ففروا إلى الله) فاستيقظت من نومى على الفور وانتفضت واقفا وأحسست بنقلة روحية بعيدة — أبعدتنى عن حياتى التى كنت أحياها وقذفتنى إلى حياة جديدة — بثت فى روحى دفعة لا عهد لى بها من المشاعر والأحاسيس — فهتفت على الفور (لبيك اللهم لبيك) وأيقظت جميع النائمين فى حجرتى وأنا أردد الأمر (ففروا إلى الله) فاستيقظوا فزعين وأخبرتهم بما رأيت فأسرعوا يتوضأون — وخرجنا إلى بيت الله الحرام حتى نلحق بالجماعة ونؤدى

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الذاريات .

كعادتنا صلاة الفجر فى الحرم الشريف ـ وكان ذلك قبل الأذان الأول بقليل ، ففى مكة والمدينة يؤذن المؤذن أذانين للفجر ـ وبين الأذان الأول والثانى ساعة تقريبا ـ والغرض من الأذان الأول هو الإعلام للاستعداد للصلاة ـ وهو أذان كامل ولا ينص فيه على عبارة (الصلاة خير من النوم) وإنما تقال هذه العبارة فى الأذان الثانى فقط لأنه يكون فى أول وقت الصلاة ، وقد تعودنا القيام قبل الأذان الأول بلحظات للتوجه إلى الكعبة المشرفة ، ولكن فى هذه الليلة أخذنا النوم فلم نتيقظ فى موعدنا كما اعتدنا حتى أتانى هذا البشير فى منامى ـ وفرحوا حينما أخبرتهم بما رأيت وخرجنا جميعا قاصدين البيت الحرام فى موكب ربانى تظللنا رحماته مسترشدين بأنواره نردد معا (الله أكبر ـ الله أكبر ـ لبيك اللهم لبيك) حتى أقبلنا على حرم الله منيبين إليه فلا مهرب منه إلا إليه ، فالفرار إلى الله هو باب النجاة .

والمتصوف يعلم حينما يقرأ قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾(١) وقوله ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ من سورة البقرة — أن الوجود الحقيقى هو وجود الله وأنه سبحانه أقرب إلى الإنسان من نفسه لأنه موجود فى كل مكان ويلجأ إليه كل كائن فيه .

ومن القرآن الكريم يعلم المسلم الفرق بين عالم الظاهر ، وعالم الباطن ، أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة ، لأنه يقرأ مثلا واضحا لهذا الخلاف فيما كان بين الخضر وموسى عليهما السلام من حوار قال تعالى ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ـ قال له موسى هل

(١) الآية ٣٥ من سورة النور

أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ـ قال إنك لن تستطيع معى صبرا ـ وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ـ قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ، ولا أعصى لك أمرا ـ قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ...... ﴾(١) .

فالمسلم الذى يقرأ هذه الآيات ـ وهو مطبوع على التصوف والبحث عن خفايا الآثار ودقائق الحكمة ـ يجد فيها غناء من الأصول الصوفية ولا ينعزل عن لباب الشريعة بالطبع والفطرة وأصول القواعد الإسلامية التى يستمدها المسلم من الدين .

والقرآن حين يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية يحرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية وينهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها ـ قال تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ من سورة القصص ، وقال تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ من سورة المائدة ، فالحياة الروحية فى الإسلام تجرى على سنن القصد الصالح للحياة البشرية ـ لا استغراق فى الجسد ولا انقطاع عنه فى سبيل الآخرة ـ وإذا كان الاسلام قد عرف أناساً من النساك الذين تفرغوا للمطالب الروحية فإنما كان ذلك على سنة التخصص فى كل مطلب من مطالب الحياة الانسانية ولم يكن من قبيل الالغاء أو التعطيل لباقى المطالب الضرورية

---

(١) الآيات ٦٥ — ٧٠ من سورة الكهف

ومما لا جدال فيه أن نزازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية المصفاة .

إن للدين سحره وإن له قوته الجبارة التى لا تثبت أمامها قوة فى الوجود وإن لأولئك الذين جعلوه زادهم وعدتهم وفنوا فيه وأخلصوا — مكانة عالية فى الدارين فهم فى دنياهم أحب خلق الله إلى قلوب عباده .

ففى الحديث « إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله تعالى يحب فلانا فأحبه . فيحبه جبريل — ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

فلنهرع إلى ظلة الحب الأسمى نستروح عبقه ونلتشى بأريجه فترقى أرواحنا إلى الملأ الأعلى حيث سبقنا محبون شربوا كأس الصفاء فسكرت أرواحهم وغابت عن الوجود الحسى وانصرفت عن المادة وارتقت فى معارج القرب حتى حظيت به ووصلت إلى حدود عالمه النورانى .

حياة الصوفية :

ولنعرف شيئاً عن الحياة الروحية التى يحياها الصوفية الذين خضعوا لسلطان حب الله حتى لقد ملك عليهم كل جارحة من جوارحهم — نستمع إلى (ذى النون) المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية وهو يتحدث عن مذهبه فى معرفة الله فيقول « هو أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج وصنعه للأشياء بلا علاج وحكمة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى من مدبر غير الله

وكل ماتصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك » وحينما يناجى ربه يقول « إلهى - ماأصغى إلى صوت حيوان ولا صفيف شجر ولاخرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولادوى ريح ولاقعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثله شيء - الهى - لا تترك بينى وبين أقصى مرادى حجابا إلا هتكته ولا حاجزا إلا رفعته ولا وعرا إلا سهلته ولا بابا إلا فتحته حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك وتبرد بالرضا منك فؤادى وجميع أحوالى حتى لاأختار غير ماتختاره وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك » .

ثم نستمع إلى (الحسين بن منصور الحلاج) وهو يتحدث عن الله تعالى فيقول (إنه سبحانه لا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحده أمام ، ولم يظهره قبل ولم يخفه بعد ، ولم يجمعه كل ، ولم يوجده كان ، ولم يفقده ليس ، وصنعه لا صنعة له ، وفعله لا علة له ، وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه ، ليس له من خلقه مزاج ولا فى فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه . وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه ، وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده ، فالحروف آياته ، ووجوده إثباته ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور فى الأوهام فهو بخلافه، لا تماقله(١) العيون ، ولا تقابله الظنون، قربه كرامته ، وبعده إهانته، علوه من غير توقل(٢)، ومجيئه من غير تنقل ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، القريب البعيد الذى ليس كمثله شيء وهو السميع

(١) المقل : النظر (٢) وقل : صعد

البصير) وقد كان (أبو اليزيد البسطامى) يجالس رجلا فسمع المؤذن يقول (الله أكبر) فقال أبو اليزيد لجليسه ـ ما معنى الله أكبر ؟ ـ فقال الرجل ـ أكبر من كل شيء ـ فقال أبو اليزيد ليس معه شيء فيقاس عليه ـ فقال الرجل : فما معناها ؟ فقال (أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو يدرك بالحواس) وهذا يشبه قول (الحسين رضى الله عنه) حينما سأله ابن الأزرق كبير الخوارج ـ ياحسين صف لى إلهك الذى تعبده ـ فقال : يا ابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه (أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو يدرك بالحواس ـ قريب غير ملتصق بعيد غير مستقصى لا إله إلا هو الكبير المتعال) .

وقد وصف الإمام (على بن أبى طالب) العلماء الربانيين فقال (هجم العلم بهم على حقيقة البصيرة فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة لدينه) .

وتهتم الصوفية بتربية القلوب ـ لأن القلب هو محل التقوى ـ فيقول العارف بالله سيدى أحمد الرفاعى (طريقى دينى بلا بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ونفس بلا شهوة وقلب عامر بالمحبة) .

ويقول العارف بالله سيدى أحمد البدوى (ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف وإنما التصوف أعمال ومجاهدة وأخلاق والأخذ بأيدى الناس إلى خيرى الدنيا والآخرة) .

تربية القلوب :

ويقول الغزالى : إن لله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنوداً مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيلاتها إلا هو ونحن الآن

تشير إلى بعض جنود القلب ـ ثم يقسم جنده إلى مدرك بالحواس كالأعضاء ومدرك بالعقل المجرد كحاسة الشم والذوق الخ .

ثم يقول (إن الأعضاء الظاهرة والباطنة خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا) ويشبه ذلك بتسخير الملائكة المقربين لله ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ثم يبين الغزالى أن الأعضاء قد تتمرد إن لم تمرن على الطاعة فيقول (نرى القلب الكريم يهم بالخير فيأمر الرجل بالسعى إلى المسجد عند سماع الأذان فتعصيه لأنها لم تمرن على ذلك) .

(ويأسف أحيانا ـ وينهى الرجل عن السعى إلى الحان ـ الخمارة ـ فتغلبه وتنطلق إلى الخمارة ليشرب كأسا من الخمر ، وينهى اليد عن السرقة فتمتد قسرا إلى الشىء المسروق) والتحقيق الذى يجمع عليه علماء النفس أن (الأعضاء إما أن تكون قد مرنت على العمل الخير بدافع الإرادة القوية فتجدها تطيع العقل بسرعة ، وإما أن تكون محكومة بالعادة الرديئة والطبع السىء فيصبح أمر العقل إياها كالنهى ـ والنهى كالأمر) ثم يعلل الغزالى افتقار القلب إلى هذه الجنود بأنه (محتاج إلى الزاد فى سفره إلى الآخرة وقطع المنازل للقاء الله الذى لم يخلقه إلا ليعبده وهذا الزاد لا يتوفر إلا بتحصيل مطالب الحياة الدنيا التى هى مزرعة الآخرة وبدون الدنيا لا تكون الآخرة ـ فبالشهوة يأكل ويتناسل ، وبالغضب يدافع عن نفسه) وهنا يمزج الغزالى نظرية أحد الفلاسفة بتعاليم من فلسفته المستمدة من تعاليم الدين (وقلب المتكبر الجبار يبعد صاحبه عن الخير فى الدنيا والآخرة) ـ فقد قال صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر)

كبر) يقول الله تعالى (الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحد منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى) حديث قدسى .

وعن أبى مسلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبدالله بن عمرو وعبدالله ابن عمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكى ، فقالوا مايبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال — هذا — يعنى عبد الله بن عمر — زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه » .

ويقول الغزالى : لا تكاد نفس إنسانية تسلم من هذه الرذيلة بل يقول إن هذه الرذيلة تتفشى فى العلماء إلى حد أن أصبح يعز وجود العلماء المخلصين الخالصين من هذه الرذيلة — والله تعالى يطبع على قلب كل متكبر جبار - أى يحول بين قلبه وبين الخير بما ران عليه من حجب الغفلة والضلال — وهذا غاية الهلاك والعياذ بالله .

وقد يظن أن المعنى هو أن الله يأتى بهذه الحجب من عنده فيضعها على القلب المتكبر عقوبة لصاحبه — ولكن التأمل الدقيق والتجربة — يريانا أن هذا الطبع وهذه الحجب الكثيفة الصارفة عن الخير إنما هى نتيجة حتمية ملازمة لكل قلوب المتكبرين لأن إصابة القلب بهذه الصفة الممقوتة تعميه دائما عن الحق وعن طريق الخير وتجعله لا يرى إلا نفسه ولا يحس إلا بوجوده وأن كل ماعداه لا يستحق أن ينظر إليه بأى نوع من الاهتمام .

ومتى وصل العبد من الغرور والكبر إلى هذا الحد فقد طُبع على قلبه وحيل بينه وبين رؤية كل حق وكل نور وصار من الهالكين جزاء

استسلامه لأنانيته وغروره وغفلته عن الحق بدوام نظره إلى ذاته دون أى شىء آخر — وإذن فهذا الطبع وهذا العمى وهذه الكثافات هى نتيجة عمله، وناشئة عن إرادته وليست من مصدر آخر خارج عنه، أما نسبة الطبع إلى الله فلا تعدو مسألة ترتب النتائج على مقدماتها والمسببات على أسبابها وهذا بلا شك مما يختص به الله سبحانه خالق القوانين ومنظم الكون على مقتضاها بإرادته الحتمية التى لا دافع لها ولا صارف من دونه سبحانه فهو وحده الذى يدخل كل متكبر فى عداد الهالكين وكل متواضع للحق فى عداد الناجين الصالحين جزاء أعمالهم، ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾(١).

والذى قد يستوقف أنظارنا ويملأنا من العظة والروعة — هو ماروى أن عبد الله بن عمرو — وعبد الله بن عمر — وهما من مشاهير الصحابة وكبارهم وزهادهم وعبادهم — توافقا يوما على الصفا وكأنما كان بينهما كلام فى أمر من الأمور — ثم مضى عبد الله ابن عمرو ووقف عبد الله بن عمر يبكى — كما تقدم ذكره.

لقد كان بكاء عبد الله بن عمر لأمر اعتبره خطيرا وهاما إلى أبعد الحدود لأنه سمع عبد الله بن عمر يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله فى النار على وجهه» ولعل هذا العبد الصالح قد فكر فى نفسه — كيف ينجو امرؤ بعد ذلك من النار إذا كان مثقال حبة من خردل من كبر سيكون خطير العاقبة إلى هذا الحد ؟!

---

(١) الآية ٢١ من سورة الطور

ولقد كان دأب أصحابه صلى الله عليه وسلم الاهتمام العظيم بأمر آخراهم ودوام الانتباه إلى مصيرهم وعقباهم حتى لتبكيهم طويلا وتحزنهم كثيراً الكلمة العابرة والإشارة الطائرة خوفا من الله ورهبته وإيمانا به واحتسابا لثوابه ورهبة من عقابه .

فأين نحن الآن ممن حدثناك عنهم ؟ وأين مكاننا من طريقهم ؟ لقد أصبح أدنى النجاح فى الدنيويات الحقيرة والمناصب الزائلة — مدعاة لكبر المسلم على أخيه المسلم — (حتى لقد يدل صاحب المنصب بنجاحه فى تصرفاته الشاذة وتغفله المجتمع والشرائع التى تحكمه حينما يعطى ويمنع بلا حق)

ولقد كان عمر بن الخطاب يقاوم كل أثر للكبرياء بكل ما يستطيع من وعظ وإرشاد أو عقوبة رادعة — ومن ذلك إتيانه بعمرو بن العاص حاكم مصر ومعه ولده لحسابهما — لأن ولده هذا جلد قبطيا غلبه فى سباق فأخذ للقبطى بحقه على رءوس الأشهاد — فجلد ابن عمرو أمام أبيه — ولم تأخذه فى الله لومة لائم — بل لقد هم بجلد عمرو لأن ابنه لم يستعل على القبطى إلا بجاه والده وسلطانه .

وله — رحمه الله — فى ذلك أخبار تدعو إلى العجب من أمره مع أولئك المتكبرين الذين كانوا يقعون فى يده ليلقنهم دروسه القاسية ، روى أنه رأى أن يولى أحد أفراد الشعب ولاية هامة ثم بدا له أن يستدعيه ليمتحنه امتحانا نفسيا دقيقا — فلما دخل الرجل عليه رآه مضطجعا وأحد أولاده يلعب على بطنه ؛ وسرعان ما فار دم الكبرياء فى عروق الرجل وبدا عليه الاشمئزاز ، بل لقد بدا له لشدة غبائه — أن يعاتب أمير المؤمنين

على أن يمكن طفله من اللعب على بطنه و هو أمير المؤمنين ! فقال له عمر وكيف أنت فى أهل بيتك ؟

وظن المتكبر الأحمق أن الظهور بمظهر الرجولة والعظمة – سيكبره فى نظر أمير المؤمنين – فقال فى غطرسة – (أما أنا فاذا دخلت سكت الناطق) – أى أنه لعظمته وخوف بطشه – كان كلما دخل بيته سكت الناطق خشوعا لهيبته – فقال له عمر رضى الله عنه (وتريد أن تلى أمر المؤمنين ؟ والله لا تلى لى عملا أبدا) – ورجع المتكبر يجر أذيال الخيبة نادما على سقطته .

وروى أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه (تاريخ عمر بن الخطاب) أنه رضى الله عنه بدا له أن يولى الأحنف بن قيس زعيم العراق أمر تلك الناحية فاستقدمه ليقيم معه عاما كاملا بالمدينة قبل أن يلى مهمته الكبيرة – وأقبل الأحنف فى مظهر الملوك وكبرياء أرباب السلطان فأدخلوه على أمير المؤمنين وهو فى ثياب الملوك ليرى عمر بن الخطاب لابسا ثوبا ملوثا بالقطران يعالج بعيراً من إبل الصدقة مصابا بالجرب ويطليه بيده ويحكه بمحك يسقيه بالقطران كلما استدعى الأمر – وهنا تراءى لسيد العراق أن الأرض تكاد تبتلعه – إذ يجد أمير المؤمنين بهذا التواضع العجيب ولعله كان يقرر فى نفسه أنه سيؤخذ إلى التكريم والتمجيد اللائق به فور وصوله .

وهنا قال : يا أمير المؤمنين – أما كان يكفيك فى هذا الأمر عبد من عبيد الصدقة ؟ فقال له : ومن أعبد من عمر ؟ – إن من يلى أمر المسلمين يجب عليه أن يكون عبداً لهم – اخلع ثيابك هذه يا أحنف وساعد أمير المؤمنين فى هذه المهمة – وخلعها صاغراً ولبس ثياب العمل

وما كان له أن يتأبى بعد أن رأى أمير المؤمنين يقوم بعمل لم ينقص من قدره — بل يرفعه إلى الثريا — وقام الأحنف بالعملية بكل مهارة ونشاط .

فلما فرغ منها — أو بعبارة أوضح — من درسه القاسى — أمر عمر بأخذه إلى دار لإصلاح شأنه — ثم إلى دار الاستقبال لينال ما للضيف القادم من تكريم .

وبعد أن انقضى العام — أحضر لأمير المؤمنين فأبلغه رضاه عن أخلاقه وحسن سيرته — ورده إلى وطنه واليا عظيما .

هذا ملخص ما رواه أبو الفرج — وفيه عبرة وذكرى لمن كان له قلب.

وهناك أسباب للكبر لابد من معرفتها وقد أوضحها الإمام الغزالى نوجزها فيما يلى :

أسباب التكبر

ذكر الغزالى فى كتابه (الأحياء) أن للتكبر عدة أسباب : —

منها العلم فيقول : وما أسرع الكبر إلى العلماء — ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (آفة العلم الخيلاء) — والواقع أن هذه ملاحظة دقيقة إذ لا نكاد نجد امرأ يمن الله عليه بنصيب من العلم ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ إلا وهو يكاد يتميز كبرا وإعجابا بنفسه إلا من عصم الله — وقد كان النبى أعلم العلماء — ومع ذلك كان سيد المتواضعين — وكذلك كان الكبراء من أصحابه كلما ازدادوا علما ازدادوا تواضعا وشكرا وخشية لله

ويقول الغزالى فيمن يتكبر بعلمه : (وهذا ما يسمى جاهلا أولى منه بأن يسمى عالما — بل العلم الحقيقى هو الذى يعرف به الإنسان نفسه وربه ...)

فالمرء كلما أخذ بالجانب الأوسع من العلم ظهر له حقارة الشخصية الإنسانية أمام ملهم العلم — وهو الله سبحانه وتعالى — وعرف ما للتواضع من مزايا تزيد المتواضع علاء ورفعة بما ليس فى حسبانه .

الثانى : أن يخوض العبد فى العلم وهو خبيث الدخيلة ردىء النفس سىء الأخلاق لم يشتغل بمجاهدة نفسه ولم يرضها بالطاعات — وقد ساق الغزالى تمثيلا لطيفا فقال : وضرب وهب لذلك مثلا — فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتتحول على قدر طعومها فيزداد المر مرارة — والحلو حلاوة — فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر همتها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا .

وكان الصحابة وغيرهم لا يسمحون بالجلوس للتعليم إلا لمن يأنسون منه التقوى والتواضع .

وحدث أن استقال حذيفة رضى الله عنه — من الإمامة — وطلب من المصلين البحث عن إمام آخر لأنه أحس من نفسه بشىء من الزهو .

ويقول بعض المتصوفة : إننا لا نرى للكبر سببا أكثر من العقد النفسية للنقص الشخصى تتمثل دائما لعين صاحبها فينشأ خبيث النفس شاعرا بقصوره — وبنقص فى أهم جوانب حياته ، وعندئذ يسعى إلى الظهور بأى سبب — ومن أى طريق — فاذا ما عثر على ضالته سكر سكرة الأبد ، وسقى من كأس لا يفيق شاربها .

هذه أهم أسباب التكبر كما ذكرها الغزالى .

ولهذا كل من أراد التصوف عليه أن يحارب هواه — ويتغلب على شيطانه .

ما يؤاخذ به العبد :

وقد بين الغزالى ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب ، وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به .

فيقول : اعلم أن هذا أمر غامض وقد وردت فيه آيات وأخبار فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) — ففى هذا الحديث نرى أن النية المجردة من غير عمل لا يعتدّ بها .

ثم يذكر نصوصا أخرى — فيقول : وأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ﴿ وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ (١)

وقد يقال : إن المراد هنا بالابداء والإخفاء العمل الذى كان فى النفس مجرد نية — أى إن تعملوا بما نويتم فى الظاهر أو فى الخفاء يحاسبكم به الله الخ ،ثم يوضح أن العفو المراد فى الحديث إنما يكون عما لا عزم فيه ولا تصميم مثل الخاطر والميل .

وأما الهم بالذنب والعزم عليه دون فعل فانه مؤاخذ به — إلا أنه عند الرجوع عن الفعل ينظر — فان كان الترك خوفا من الله وندما على الذنب كتبت له حسنة ومحيت عنه سيئة لأنه جاهد الطبع وخالف الهوى فاستحق الحسنة .

أما إذا كان رجوعه عن الفعل بصارف قهرى وليس عن خشية الله ولا عن ندم، فانه يكون مؤاخذا على همه وعزمه، ثم يورد الغزالى خبراً مضمونه أن الصحابة لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو

---

(١) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة

تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ شكا بعضهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم — أنهم لا طاقة لهم بذلك لأن نفوسهم تحدثهم — فنهاهم عن الاعتراض وأمرهم بالطاعة إلى أن نزل قوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر بذلك أن كل ما لا يدخل تحت الاستطاعة وتحت الإرادة فمعفو عنه .

والعارفون لهم مقامات عند المتصوفة نوضحها فيما يلى :

مقامات العارفين :

إن للعارفين مقامات ودرجات يختصون بها فى حياتهم الدنيا دون غيرهم فكأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس ، ولهم أمور خفية فيهم ، وأمور ظاهرة عنهم ، يستنكرها من ينكرها ويستكبرها من يعرفها — ودرجاتهم كما يلى : —

فالمعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يختص باسم الزاهد .

والمواظب على نقل العبادات — من القيام والصيام ونحوهما يختص باسم العابد .

والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى سره يختص باسم العارف .

والزهد عند غير العارف معاملة ما — كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة — وعند العارف تنزه ما — عما يشغل سره عن الحق ، وتكبر عن كل شىء غير الحق .

والعبادة عند غير العارف معاملة ما — كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة — هى الأجر والثواب .

وعند العارف رياضة ما — لهممه وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة

ليبعدها بالتعريد عن جناب الغرور ويقربها إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن وحينما يستجلى الحق لا تنازعه — فيخلص السر إلى الشروق الساطع — ويصير ذلك ملكة مستقرة كلما شاء السر اطلع على نور الحق غير مزاحم من الهمم فيكون بكليته منخرطا فى سلك القدس .

والعارف يريد الحق الأول لا لشىء غيره، ولا يؤثر شيئا على عرفانه وتعبده له فقط، لأنه مستحق للعبادة — ولأنها نسبة شريفة إليه لا لرغبة أو رهبة — وإن كانتا — فيكون المرغوب فيه أو المرهوب هو الداعى وفيه المطلوب .

وأول درجات حركات العارفين ما يسمونه هم (الإرادة) وهو مايعترى المستبصر باليقين البرهانى أو الساكن النفسى إلى العقد الإيمانى — من الرغبة فى الاستمساك بالعروة الوثقى فيتحرك سره إلى القدس لينال من روح الاتصال — فما دامت درجته هذه فهو مريد .

ثم إنه يحتاج إلى الرياضة .

والرياضة موجهة إلى ثلاثة أغراض — الأول تنحية ما دون الحق عن مستن الإيثار ، والثانى تطويع النفس الأمارة بالسوء — للنفس المطمئنة — لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسى ، والثالث تلطيف السر للتنبه .

والأول : يعين عليه الزهد الحقيقى ، والثانى : تعين عليه عدة أشياء (العبادة المشفوعة بالفكرة ، ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن به من الكلام موقع القبول من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكر بعبارة بليغة ونغمة رخيمة)

وأما الغرض الثالث فيعين عليه الفكر اللطيف والعشق العفيف الذى تأمر فيه شمائل المعشوق وليس سلطان الشهوة .

ثم إنه إذا بلغت به الرياضة والإرادة حدا ما ، عنّت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه ـ وهو المسمى عندهم أوقاتا .

ثم إنه ليتوغل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض ـ فكلما لمح شيئا عاج منه إلى جناب القدس ، يتذكر من أمره أمرا ، فيغشاه غاش فيكاد يرى الحق فى كل شىء .

ولعله إلى هذا الحد يظهر عليه مابه ، فإذا تغلغل فى هذه المعارفة قل ظهوره عليه ، فكان وهو غائب حاضراً ، وكان وهو ظاعن مقيماً ، ولعله إلى هذا الحد إنما تتسنى له هذه المعارفة أحيانا ثم يتدرج إلى أن تكون له متى شاء .

ثم إنه ليتقدم هذه الرتبة فلا يتوقف أمره على مشيئته ، بل كلما لاحظ شيئا لاحظ غيره ، وإن لم تكن ملاحظته للاعتبار ، فسنح له تعريج عن عالم الزور إلى عالم الحق ، ويحتف حوله العارفون .

فإذا عبر الرياضة إلى النّيْل ـ صار سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق ، ودرت عليه اللذات العلا ، وفرح بنفسه لما بها من أثر الحق . وكان له نظر إلى آيات الحق ونظر إلى نفسه فكان بعد متردداً ـ ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ آيات جناب القدس فقط وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لا من حيث هى بزينتها .

وهناك يحق الوصول .

الحب الالهى :

هو ما كان من الله تعالى لنا - أو منّا له - وحبه جل ذكره ، إما أن يكون لنفسه وإما أن يكون لنا - أو بعبارة أخرى إما أن يحبنا لنفسه أو لنا - أما حبه تعالى إيانا لنفسه فنستطيع أن نمثل له بقوله (أحببت أن أعرف فخلقت الخلق فتعرفت إليهم فعرفونى) .

أى أنه ما خلقنا إلا لنفسه حتى نعرفه وقد كان كنزا مخفيا ، كذلك من الممكن أن نمثل له أيضا بما فرض علينا من تكاليف قدّر على الوفاء بها الثواب وعلى من عصى العقاب - وفى الوفاء والطاعة تعظيم وتمجيد وثناء — وإذن فلنفسه أحب ولتعظيمه والثناء عليه أحب .

أما حبه تعالى إيانا لنفسنا - لا له - فنحسه فيما عرفنا من مصالح دنيانا وآخرتنا وفيما سخر لنا من العالم جليله وصغيره إن كان فيه شىء صغير - وفيما نصب لنا من أعلام تهدينا للسعادة ، وفيما أرسل إلينا أخيرا من رسوله الذى جاء بالحق والهدى وسعادة الدنيا والآخرة وفيما منّ علينا من حب الإيمان وكراهية الكفر والفسوق والعصيان ، وفيما وفقنا لما يحبه ويرضاه وفى ذلك خيرنا وسعادتنا .

وأما حبنا لله تعالى - فكما ذكر فى الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ومعنى هذا أن الحب من شأنه أن يكون متبادلا بين الله وعباده الذين يستأهلون شرف ونعمة أن يكونوا من الله محبوبين ومحبين - والإنسان بما هو إنسان - يحب الله حبا طبيعيا وحبا روحانيا - لأنه فى عبادته له يعبده رهبة ورغبة تارة وحبا أخرى - فهو فى الأولى محب له حبا طبيعيا يقصد به نيل ما يسره ويقصد

(١) الآية ٥٤ من سورة المائدة

النجاة من عذابه والتمتع بثوابه، وفى الحالة الثانية يحب له حبا روحانيا لأنه يعبده لنفسه وذاته لا لغرض آخر وهذا ما يليق بالروح .

ثم لما كان الله غيورا أراد استخلاص الروح لنفسه فلا تحب إلا إياه فيسر لها سبيل معرفته معرفة حقة فنظرته فى كل شىء فاغتبطت وسرت وعلمت أنها ما أحبت الا الله وحده (فهو المحب والمحبوب - والطالب والمطلوب) فالله هو المحبوب على الحقيقة دائما - يجهل ذلك ولا يحسه قوم - ويعلمه ويشعر به آخرون وهم العارفون - فما أحبوا الا الله .

وكل من يحب الله لذاته له صفات لازمة له، وأمارات تدل عليه، يوضحها القرآن الكريم ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾(١) ومنهم من ذكرهم القرآن ﴿ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ﴾(٢) هؤلاء لا يحبون الا لغرض ولا يكرهون إلا إن فاتهم ما أرادوا من غرض —

فهل من يحب الله شأنه هذا الشأن ؟ - إن الذى يحب الله يحس أنه مادام يحبه لذاته فلن يتأثر حبه بإقبال نعمة أو ابتلاء - حبه لله ثابت دائما لا يقبل زيادة بالبر أو نقصا بالإعراض .

وحتى يتحقق هذا الحب فعلى المرء أن يزهد فى الدنيا أولا حتى لا يشغل بها عن حب الله فيحرم من هذه اللذة السامية .

وقد عرف الإمام الغزالى (الزهد) فقال : أن تنزوى عن الدنيا طوعا مع القدرة عليها - وبعبارة أخرى - الزهد هو الرغبة عن الدنيا عدولا الى الآخرة - أو عن غير الله تعالى عدولا اليه وهذه هى الدرجة العليا .

---

(١) الآية ١١ من سورة الحج (٢) الآية ٥٨ من سورة التوبة

علامات الزهد :

وللزهد الحقيقي علامات يتميز بها عن الزهد الزائف المتصنع - منها ألا يأسى الزاهد على فائت أو يفرح بآت - وأن يستوى عنده الذم والمدح - . الأولى أمارة الزهد فى المال - والأخرى أمارة الزهد فى الجاه.

فأيما عبد أشكل عليه الأمر فليختبر نفسه بهذه العلامات حتى يتبين له إن كان من الصادقين أو المتجرين الأدعياء .

قال تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ ومعناه أيهم أزهد فيها - فوصف الزهد إذن بأنه من أحسن الأعمال ومن الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتاً وزهدا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة).

وقوله : (إذا أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا) .

ثم من فضيلة الزهد أنه قد يكون سببا لأن يفيض الله على الزاهد بعض رحمته فيعلمه من لدنه علما .

قال صلى الله عليه وسلم (من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا) .

فالغزالى يشيد بالزهد وما فيه من فضل وخير جعلاه فضيلة ترفع إلى الدرجات العلا ، فمخافة أن يستشعر الراغب وعورة الطريق تراه يحيط هذا بذم الدنيا ومفاتنها . من الغنى والجاه ، ويمدح الفقر والجوع ويجعلهما من الفضائل - كل هذا ليبين أنه ان يضيع بالزهد أمر ذو بال أو خطر .

ويقول - والمال أيضا كالولد - ملهاة عن ذكر الله وفتنة - فمن اختار ماله

(١) الآية ٧ سورة الكهف

وولده على ماعند الله فقد خسر خسرانا عظيما - وقد وردت أحاديث كثيرة تشير الى هذا المعنى .

فقد روى الترمذى وابن ماجة — قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الدنيا ملعونة — ملعون ما فيها إلا ما كان لله منهــــا) وحديث آخر (حب الدنيا رأس كل خطيئة)

وفى الحديث أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى أمتك شر ؟ قال : (الأغنياء)(١) وأنه قال : (دعوا الدنيا لأهلها فمن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر)

وإذا كان الله يمتن على فريق من عباده بلسان نوح عليه الســــلام فيقول ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾(٢) فليس معنى هذا أن كمال الانسان وسعادته فى هذا النوع من الخير — بل كماله الحق — فى العلم وحرية النفس بألا تكون أسيرة للدنيا وزينتها .

وهذا لا يكون إلا بقطع الاهتمام بالدنيا والالتفات إلى الله وحده فالعلم والحرية من الباقيات الصالحات — وهما كمالان حقيقيان — والمال والبنون زينة الحياة وهما كمالان وهميان .

ولهذا لا يسعد بحب الله ومعرفته — وهما سبيل السعادة فى الآخرة — إلا مُعرض عن الدنيا قانع منها بقدر الزاد والضرورة ، وللناس تجاه الدنيا مواقف ونسب مختلفة — فمنهم الكلف بها ومنهم الذى نفذ إلى باطنها وكشف أسرارها فلم يجد فيها ما يفتن فأعرض عنها — ومنهم من هم بين بين .

---

(١) الذين لا يؤدون حق المال (٢) الآية ١٢ من سورة نوح

والذين أعرضوا عنها هم الزاهدون — وهذا الزهد الذى هم عليه يتفاوت قوة وضعفا ولذلك يكون على درجات ثلاث :

أدناها من يزهد فى الدنيا — وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه اليها ملتفتة ولكنه يجاهدها .

وتلى هذه المرتبة — مرتبة من يحقر الدنيا وعروضها بجانب ما يرجوه من الآخرة ونعيمها — فهو إذاً لا يلتفت لما ترك ولكنه يرى أنه زهد فيما يرغب فيه غيره فيعجب بنفسه — ويظن أن له عقلا وحزما إذا ترك القليل للكثير .

والدرجة العليا من هذه الدرجات (هى أن يزهد طوعاً ويزهد فى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا) — بجانب ما ينتظر ويرجو — وإنما كانت هــــذه الدرجة هى العليا لأنها سمت على المعاوضة والتجارة — (الأحياء للغزالى)

الباعث عن الزهد :

والبواعث على الزهد تختلف على ثلاث درجات : إحداها أن يكون الباعث عليه الخوف من النار — وما هو منها بسبب — كعذاب القبر ومناقشة الحساب — وهذا زهد **الخائفين** .

والثانية : وهى التى تعلو على ما سبقها فى الرتبة — أن يكون باعثه الرغبة فى نعيم الآخرة — وهو زهد **الراجين** الذين تربطهم بالله جـــل ذكره رابطة الأمل والمحبة لا رابطة الخوف والرهبة .

والثالثه : وهى أعلى الدرجات — أن يكون الباعث على الزهد فى الدنيا — الترفع عن الالتفات إلى ما سوى الحق تنزيها للنفس عنه — واستحقاراً لما سوى الله — وهذا زهد **العارفين** .

وقد وردت آيات كثيرة ترمى إلى تفهيمنا الدنيا وقيمتها بأنها متاع الغرور وأنها لعب ولهو إلى نفاذ وأنها ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ﴾(١) كما أن فيه آيات أخرى تلفتنا إلى الدار الآخرة وتحببنا فيها — لأنها خير وأبقى — وإلى أن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى .

إن المتصوفين تركوا الدنيا لأصحابها الذين يتقاتلون فى سبيلها .

فلم يخافوا الأيام ولا ما تأتى به — ونجوا من الهموم والآلام التى لا يسلم منها من له منصب أو مال أو ولد .

لأنه عرضة دائما لأن يتخطف منه الزمن والموت بعض ما يعزه .
وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته .

حب الله هو طريق السعادة :

الحب الذى يحقق السعادة هو الحب الذى يؤدى إلى الفناء فى حب الله .

وذلك بكثرة الطاعات حتى يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه كما ورد فى الحديث القدسى فيعرف الأمور كلها بالله ويعرف الله بالله .

ولهذا ينبغى للعاقل أن يتعرض لنفحات الجود ولا يبقى مأسوراً فى قيد نظره وكسبه .

فهل للمحب أن يغفل عن حبيبه لحظة ؟ أو يتخلى عنه برهة ؟

إنه دائم الصلة به — يذكره إذا قام — ويكرر ذكره إذا تحرك أو أقدم على أى عمل .

يذكره فى كل حال وعلى أى وضع كان .

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الحديد

وقد امتدح الله محبيه ، وحثهم على دوام ذكره ، ليديم عليهم نعمته ورضوانه — قال تعالى﴿ فاذكرونى أذكركم﴾ ويتوجه المحب إلى ما أوجده الحبيب فيغيب عن نفسه ولا يرى أمامه غير من أوجده ، فينفرد بالعلم الدائم والتذكر المستمر قال تعالى :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾(١)

فالذين يذكرون الله دائما ويتعلقون به ولا ينسونه — هم ذوو العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم — المتجردون عن العلائق النفسية — المتخلصون من العوائق الظلمانية ، المتأملون فى أحوال الحقائق وأحكام النعوت ، المراقبون فى أطوار الملك وأسرار الملكوت المتفكرون فى بدائع صنائع الملك الخالق ، المتدبرون فى روائع حكمه المودعة فى الأنفس والآفاق ، الناظرون إلى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصون عن حقيقة سر الحق فى كل الوجود ، المثابرون على مراقبته وذكراه غير ملتفتين إلى شىء مما سواه إلا من حيث إنه مرآة لمشاهدة جماله ، وآلة لملاحظة صفات كماله .

فان كل ما ظهر من مظاهر التكوين والاختراع سبيل سوى إلى عالم التوحيد ودليل قوى على الصانع المجيد ، ناطق بآيات قدرته .

عن عائشة رضى الله عنها — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هل لك يا عائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى ؟ فقلت يا رسول الله —

(١) الآيتان ١٩٠ — ١٩١ من سورة آل عمران

إنى لأحب قربك وأحب هواك — قد أذنت لك — فقام الى قربة من ماء فى البيت فتوضأ — ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وجعل يبكى — ثم رفع يديه وجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض — فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى — فقال له يارسول الله — أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً — ثم قال : ومالى لا أبكى وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ .. الآية ثم قال (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)

وروى (ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)

ففى خلق السموات والأرض آيات للذين لا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم فى مراقبته — لما أيقنوا بأن كل ما سواه فائض منه وعائد اليه، فلا يشاهدون حالا من الأحوال فى أنفسهم ولا فى الآفاق إلا وهم يعاينون فى ذلك شأنا من شئونه تعالى .

وقد روى عنه عليه السلام أنه قال « لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض » قالوا — وانما كان ذلك للتفكر فى أمر الله تعالى .

ولذلك قال عليه السلام (لاعبادة مثل التفكر) هكذا تكون محبة الله — ذكر دائم لجلاله ، وتفكر دائم فى مظاهر عظمته ، وتطلع دائم لرحماته ، وانتظار دائم للقائه ، واستعداد دائم ليوم اللقاء .

تلكم صفات المحبين العارفين بالله .

والعارف له امارات تدل عليه ، ونعوت يتصف بها — منها : أنها إذا تمت جعلت العارف يغيب عن نفسه فلا يشهد غير الله لاستيلاء ذكره عليه، وأنه يكون برما بالبقاء فى هذه الدنيا لما عرفه من أن فى الموت لقاء الله ، لا يأسف على شىء إذ لا يرى غير الله ، ويكون قلبه مرآة للحق فارغا من الدنيا والآخرة ، حليما باكى العين ، ضاحك القلب ، عارفا ربه بربه مريداً لكل مايراد منه ، صاحب دليل وكشف وشهود ، ويكون أيضاً كبيراً بحق ، صغيراً لحق لا يفرِّط ولا يفرِّط ، يحسن للمسىء والمحسن ، يرى نفسه كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يسقى ما يحب ومالا يحب يرجع لله فى كل أمر ؛ ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص، جامع لعلوم الشرع، يستغنى عن تعليم الخلق بتعليم الحق، وأخيرا يعمل ماينبغى كما ينبغى لما ينبغى

والحب مقام إلهى ، وقد وصف الله نفسه به ، وأرانا أنه محب ومحبوب ، إنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ، ويحب الشاكرين ويحب المتصدقين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

وقد كان كنزا مخفيا فأحب أن يعرف فخلق الخلق لهذا — كما قال تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم (ماتقرب المتقربون بأحب إلى من أداء ما افترضته عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به) .

وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ .

وتوعد من يرتد عن الدين بأن يأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، ذلك كله

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران

معناه ماللحب من مكانة حتى وصف الله نفسه به وطلب منا أن نحبه .

وإذا ماتخلص الهوى مما يلابسه من علاقات أخرى صار حبا ، وإذا تمحص حب الإنسان لله دون غـــيره من الأغيار سمى ذلك حبا .

وإذا اشتد الحب وصار مفرطا وأعمى الإنسان عن كل شيء سوى محبوبه وسرت تلك الحقيقة فى جميع أجزاء بدنه وقواه وروحه وجرت فيه مجرى الدم فاتصلت بوجوده وعانقت جميع أجزائه ولم يبق فيه متسع لغيره كان هذا أسمى أنواع الحب .

والود : هو ثبات هذا المقام الذى ندعوه أولا . هوى ـ ثم حبا ثم، عشقا حتى يـكون سلطانه هو فى المنشط والمـكره ما يسوء ومايسر ، ولما فيه من معنى الثبات والدوام نجد تسمية الله بالودود . ونجده تعالى يقول فى كتابه الـكريم ﴿ سيجعل لهم الرحمن وُدّا ﴾(١) أى ثباتا فى المحبة عند الله ـ ان الحب الالهى ـ إحساس جارف وشعور غالب من العسير أن يعبر المحب عنه أو أن يحدده ـ ولـكنه يحدث أن تنتابه درجات من الإحساس يحب أن يحددها وينمقها ليتخذها وسيلة فى زيادة القرب(٢).

---

(١) الآية ٩٦ من سورة مريم

(٢) فى الجزء (١١) من فتاوى الشيخ ابن تيمية يقول عن (الصوفى) هو فى الحقيقة نوع من الصديقين الذى اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه .

ثم يقول : الصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقى زمانهم ، والصديقون درجات وأنواع ـ ثم يقول : تنازع الناس فى طريقهم ـ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون =

وحتى نصل الى السعادة الحقة ونغترف من بحر التصوف ما يحقق لنا الغذاء الروحى وننعم بالحب الإلهى علينا أن نتعلم فى مدرسة الرسول الصوفية ونقتفى أثره ونتعمق فى فهم كل ماكان يلقيه على السلف الصالح من دروس كانت لها أعظم الأثر فى تهذيب النفوس وتنقيتها من الشوائب وتطهيرها من الدنس حتى وصلوا إلى القمة فى العبادة فكانوا الرواد الأوائل فى الزهادة والعشق الإلهى ـ كما سيتضح ذلك فيما بعد .

ولنبدأ بالحديث عن إمام الزاهدين لنعرف كيف كانت خلوته ومظاهر زهده وما يقول فى دعائه واستغفاره وتوبته مع بيان حرصه على دوام العبادة وتلاوة القرآن الكريم ـ وعلينا أن نقتدى به فى كل ماورد عنه ـ عملا بقول الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾(١) .

= خارجون على السنة ، وطائفة غالت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق بعد الانبياء ، وكلا طرفى هذه الأمور ذميم والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ... الخ) اه

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب

الباب الثانى

إمام العابدين

قال تعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله صلوات الله عليه فى كثير من سوره(١) وتوضح لنا الآية المذكورة مكانة الرسول وأنه القدوة الحسنة لنا وحينما نريد أن نكون صورة واضحة تامة عن رسول الله - فإن الطريق الوحيد لذلك إنما هو الإحاطة بالقرآن إحاطة واضحة تامة والقرآن فى كل يوم يتفتح عن معان جديدة للإنسانية ويتضح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر - وهذه المعانى الجديدة - إنما هى إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والرسول صلى الله عليه وسلم متصل بالله دائما - إنه فى السماء على الدوام - وهو متصل بالبشر ، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة ، إنه كان على حد تعبير القرآن (بشراً رسولا) فهو ببشريته مع الناس وهو بسره مع الله ، إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره ، إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، إنه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : إنه دائما مع الله ، فهو يبيت عند ربه - يقول صلى الله عليه وسلم « لست كهيئتكم - أبيت عند ربى .... »

---

(١) الرسول - للدكتور عبد الحليم محمود ٦ - ١٢

لقد كان قبل نزول الوحي بسنوات ـ يسمع صوتا أحيانا ولا يرى شيئا(١) وكان يرى نورًا وكان به مسرورا ، ولما قربت أيام الوحي أحب الخلوة والانفراد ـ فكان ينفرد في جبل حراء ـ وبه غار صغير ، وللعلماء في عبادته في خلوته قولان ـ قال بعضهم كانت عبادته بالفكر وقال بعضهم بالذكر .

وخلوة طلاب الحق على انواع : فقد تكون خلوتهم لطلب مزيد علم الحق من الحق لا بطريق النظر والفكر ـ وهذا غاية مقاصد أهل الحق ـ لأنه من خاطب في خلوته كونا من الأكوان أو فكر فيه فليس هو في خلوة .

وقد قال شخص من طلاب الطريق لشيخه : اذكرني عند ربك في خلوتك ـ قال (إذا ذكرتك فلست معه في خلوة) .

ومن ثم يعلم سر الحديث القدسي (أنا جليس من ذكرني) وشرط هذه الخلوة أن يذكر الله بنفسه وروحه لا بلسانه .

وقد تكون الخلوة **لصفاء الفكر** ـ لكي يصح نظرهم في طلب المعلومات وهذه الخلوة لقوم يطلبون العلم من ميزان العقل ـ وذلك الميزان في غاية اللطافة ـ وهو بأدنى هوى يخرج عن الاستقامة ، وطلاب طريق الحق لا يدخلون في مثل هذه الخلوة . بل تكون خلوتهم بالذكر ـ وليس للفكر عليهم قدرة ولا سلطان .

ومهما وجد الفكر طريقا إلى صاحب الخلوة فينبغي أن يعلم أنه

---

(٢) سفر السعادة

ليس من أهل الخلوة - ويخرج من الخلوة - ويعلم أنه ليس من أهل العلم الصحيح الإلهي ، إذ لو كان من أهل ذلك لحالت العناية الإلهية بينه وبين دوران رأسه بالفكر .

والنوع الثالث : خلوة يفعلها جماعة لدفع الوحشة من المخالطة والاشتغال بما لا يعنى فانهم إذا رأوا الخلق انقبضوا فلذلك اختاروا الخلوة .

والرابع : خلوة لطلب زيادة لذة توجد فى الخلوة .

خلوة الرسول ونوعها :

وخلوة الرسول الكريم من النوع الأول - وكان بعيدا جدا من جميع المخالطات حتى من الأهل والمال - واستغرق فى بحر الأذكار القلبية وانقطع عن الأضداد ، بالكلية وظهر له الانس والجلوة بتذكر من لأجله الخلوة ، ولم يزل فى ذلك الأنس ومرآة الوحى تزداد من الصفاء حتى بلغ أقصى درجات الكمال - فظهرت تباشير صبح الوحى وأشرقت ، فكان لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال بلسان فصيح : السلام عليك يا رسول الله .

لقد حبب إليه الخلاء - فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك حتى قالت العرب . إن محمداً قد عشق ربه .

يتجه إلى الله فى الصباح يتجه إلى الله فى الظهر ، يتجه اليه فى الآصال ، يتجه اليه فى مغيب الشمس ، يتجه إليه حينما تلمع الكواكب إنه مهاجر إلى الله فى كل لحظة وفى كل نفس من أنفاسه .

إن حياته كلها لله ، خضوعه وتذلله لله - التجاؤه دائما لله حتى أصبح

فى النهاية وكأنه صفاء من الصفاء ونور من النور — وفى ليلة من الليالى — بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم معتكفا فى غار حراء ـ كعادته ـ وفى شهر رمضان المبارك . تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذى يفصل بين الكسب البشرى الموفق . من جانب ـ والاجتباء الربانى من جانب آخر فجاءه الملك — فقال : اقرأ — قال « ما أنا بقارىء » — قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ـ ثم أرسلنى فقال : اقرأ قلت « ما أنا بقارىء » فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى — فقال اقرأ قلت « ما أنا بقارىء » فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ من الجهد ثم أرسلنى — فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق — خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ـ علم الإنسان مالم يعلم ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ـ فدخل على خديجة بنت خويلد — فقال : زملونى زملونى — فزملوه . حتى ذهب عنه الروع — فأخبرها الخبر . وقال (لقد خشيت على نفسى) فقالت خديجة . كلا والله ما يخزيك الله أبدا - إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

وانطلقت به إلى ورقة بن نوفل - وكان امرأ تنصّر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى — فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله عليه — فيما بعد فقال « قد رأيته فى المنام كأن عليه ثيابا بيضا — فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض »

لقد مر بتجارب كثيرة فى الدنيا والدين — وأصبح لا يرجو إلا حسن الخاتمة .

ولما سمع من رسول الله ماحدث — قال دون تردد (هذا هو الناموس الذى نزل الله على موسى) .

ولم يملك ورقة أن آمن — وماذا يمكن أن يقول لشخص تجرد إلى الله ولم يطلب مالا ولا جاها ولا زعامة ولا ملكاً إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها وأن تقوم فى كيانها كله على أساس من تربية ربها .

كانت ﴿ اقرأ ﴾ دعوة آمرة إلى الثقافة وإلى العلم — إلى الفكر — إلى البحث المستفيض فى السماء وفى الأرض وفى الجبال والبحار وكل ماخلق الله تعالى .

وقام الرسول بتبليغ الدعوة الإسلامية سرا ثلاث سنوات — ثم أمر بالجهر بها وصعد على الصفا ونادى قريشا — ثم قال لهم « إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله » .

لقد كانت حياته البراءة الكاملة والطهر التام — وهذا مادعاه إلى أن يتحدى فى صراحة وأن يعلن فى وضوح أن حياته تثبت صدق مايقول .

وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين .

إن الدعوة الإسلامية آيات بينات فى منطق الحق وفى منطق العقول المستنيرة ، يذكر (الألوسى) — أنه لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا إلى الإسلام بعث إليه أكثم بن صيفى — ابنه (حبيشا) — فأتاه بخبره —

لجمع بنى تميم - وقال لهم : إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره وكتابه - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران - وقد عرف ذوو الفضل منكم والرأى : أن الفضل فيما يدعو إليه وأن الرأى ترك ماينهى عنه ثم قال : إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا .

زهده عليه السلام :

ولقد زهد الرسول فى الدنيا - وكانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس - فقد روى أنه أتى اليه صلى الله عليه وسلم سبعون ألف درهم - - فوضعها على حصير - ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

ويقول صلى الله عليه وسلم (مالى وللدنيا) ويقول (لقد عرضت على الدنيا فأبيتها) وكان يقول لأصحابه (ان الدنيا خضرة حلوة وأن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون - فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) - ويقول لهم (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) .

ان الرسول صلوات الله عليه - ما كان يتطلع الى الدنيا فى مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾(١) .

إنه صلى الله عليه وسلم هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآنى - فكان عازفا عن الدنيا لسعيه وراء الآخرة . . .

---

(١) الآية ١٤ من سوره آل عمران

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه .

إن هذا العزوف لا يعنى الا عدم تعلق القلب بها مع تسخيرها فى سبيل مرضاة الله.

وقد امتلك المسلمون الأولون الدنيا ودانت لهم المعمورة وخضعت لهم المادة فاستخدموا كل ذلك فى الخير وإسعاد الإنسانية .

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية وبرسوله الكريم أن أول كلمات من الوحى - كانت توجيها للرسول وللمسلمين بأن تكون أعمالهم كلها عبادة - لأن ما كان باسم الله كان عبادة ولو كان أكلا أو شربا مثلا .

والرسول صلوات الله عليه حينما فاجأه الوحى استجاب لهذا التوجيه السامى الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة واستمر طيلة الوحى .

لجعل كل اعمال الحياة عبادة — لقد جعل صلاته ونسكه وحياته ومماته لله رب العالمين — جعل كلامه وصمته وحركته وسكونه ونومه ويقظته وأنفاسه عبادة لله — وهـــذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله أول المسلمين .

الدعاء عبادة :

هذا وقد تواترت الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم بالترغيب فى الدعاء والحث عليه — فالدعاء أعلى أنواع العبادة لحديث أنس « الدعاء مخ العبادة » - وعن أبى هريرة قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس شىء أكرم على الله من الدعاء) وروى عنه حديث آخر (من لم يسأل الله يغضب عليه) .

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن أوقات العبادة فى

أحاديث متواترة منها (أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء .....) وقيل لرسول الله — أى أوقات الدعاء أفضل ؟ قال : (جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبة) .

وقال (دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة وعند رأسه ملك موكل به كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل).

وقال (ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة الا أتاه الله اياها أو صرف عنه من السوء مثلها مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم — فقال رجل من القوم إذن نكثر — قال : الله أكثر) .

وقال ابن عباس لما بت فى بيت خالتى ميمونة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من حجرته يريد صلاة الصبح فى المسجد يقول (اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا واجعل من فوقى نورا ومن تحتى نورا اللهم أعطنى نورا) . ولقد عاش رسول الله نورا يضىء الطريق لكل من آمن به وصدق رسالته وأرشد أتباعه ومحبيه الى باب الرحمة — قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يارسول الله علمنى كلمات أقولها فى الصباح والمساء - قال : قل « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد ألا إله أنت أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم » .

وقال لفاطمة رضى الله عنها (ما الذى يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به تقولين إذا أصبحت وإذا أمسيت - ياحى ياقيوم بك أستغيث فأصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين) .

من دعاء الرسول : وكان صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت. اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاد ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ، وأعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها . وأعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك وفجاءة نعمتك ومن جميع سخطك، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما أعلم ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله الا أنت اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى ومن شر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر عينى .

اللهم إنى أعوذ بك من التردى ومن الغرق والحرق والهدم، وأعوذ بك من أن يتخبطنى الشيطان عند الموت وأعوذ بك من أن أموت فى سبيلك مدبرا ، وأعوذ بك من أن أموت لديغا ، أعوذ بكلمات الله التامات من شر غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، اللهم ألهمنى رشدى وأعذنى من شر نفسى، أعوذ بوجه الله العظيم الذى لا شىء أعظم منه وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، اللهم اغفر لى جدى وهزلى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى ،اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر ، اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى رب أعنى

ولا تعن على وانصرنى على من بغى على وامكر لى ولا تمكر على واهدنى ويسر لى الهدى وانصرنى على من بغى على ، رب اجعلنى لك شاكراً ذاكراً لك رهاباً لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أواهاً منيبا ، رب تقبل توبتى وأجب دعوتى واغسل حوبتى وثبت حجتى وسدد لسانى وأيد قلبى واسلل سخيمة صدرى ، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب اللهم ما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بالقضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين ، اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأكثر ذكرك ، وأتبع نصحك وأحفظ وصيتك ، اللهم إنى أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر ، اللهم طهر قلبى من النفاق وعملى من الرياء ولسانى من الكذب وعينى من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، اللهم إنى أسألك من صالح ما تؤتى الناس من الأهل والمال والولد غير الضال والمضل اهدنى وسددنى ، اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء فالق الحب

والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذبك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين واغننا من الفقر يا أرحم الراحمين ، اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك أنت تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) (١).

هكذا كان يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم ربه ـ وفى هذا الدعاء ـ الكثير من ألوان الحب لله والتزلف إليه والخضوع له وفيه أيضا كل معانى الطاعة وقد شمل كل ما يتطلع إليه العبد ويرجو تحقيقه .

وعلينا أن نقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم وندعو بما دعا به ـ فالدعاء كما سبق ذكره ـ أعلى أنواع العبادة ـ و (من لم يسأل الله يغضب عليه) ـ كما ورد فى الحديث الشريف .

لقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته عابدا زاهدا رسم طريق العبادة والزهد لأمته ـ وعلى كل من أحبه أن يقتدى به ويتبعه .

إن الله سبحانه وتعالى قد أخبر أنه ما خلق الجن والإنس الا للعبادة فقال ﴿ وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون ﴾ من سورة الذاريات .

فغاية الخلق العبادة وسبب الخلق العبادة ـ ومن هنا توالت التوجيهات القرآنية للعبادة .

وما كانت العبادة الا لأجل تكميل العباد ـ ففائدة العبادة راجعة الى العابد نفسه ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة

(١) هذا الدعاء الشامل من كتاب سفر السعادة وقد ذكرته بأكمله ليقتدى بالرسول محبوه

طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(١) هكذا يقول الحق تبارك وتعالى .

ومن أجل هـذا لم يترك رسولنا الأعظم لحظة تمر دون التوجه الى الله ـ بالدعاء وبالاستغفار وبالصلاة وبالصوم وبالزكاة وبقراءة القرآن وبكل مظاهر الخضوع لله والإجلال لعظمته .

الاستغفار والتوبة :

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا اله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ماصنعت ـ أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ـ اغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت) ـ ثم قال ـ (ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ـ ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)

وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة) .

ونحن فى حاجة إلى مغفرة الله فكلنا خطاءون — وخير الخطائين التوابون ، وقد صور لنا رسول الله موقف الناس من ذنوبهم فقال (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ـ وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا ـ قال أبو شهاب — بيده فوق أنفه ـ ثم قال الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا به مهلكة ومعه راحلته عليه طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهبت راحلته

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل

حتى اشتد عليه الحر والعطش ـ أو ما شاء الله ـ قال : أرجع إلى مكانى فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فاذا راحلته عنده) ـ فالمؤمن شأنه دوام المراقبة واستصغار صالح عمله واستعظام صغير ذنبه ، وذلك يحمله على الضراعة والاستغفار وهما روح العبادة ـ فهو لقوة إيمانه وشدة خوفه إذا ارتكب ذنبا مهما صغر كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه .

أما الفاجر فانه يستهين بالمعصية ولا يشعر بخطرها ويزعم أنه يدفع ضررها عن نفسه بأهون الأسباب ـ كما أشار لذلك الرسول بتحريك اليد الدفع الذباب .

فالفاجر معرض عن مولاه ، ينسى مولاه حتى يقع فى الهلاك الدائم وقد أوضح الرسول رضاء الله سبحانه وتعالى عن عبده التائب الراجع عليه بصورة محسوسة توضح مدى سرور من يحصل له مثل هذا الحادث الذى ذكره .

وهكذا كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ عبادة دائمة وإرشاد للغير ليقتدى به ـ استجابة لما أراد الله .

عبادة الرسول .

كان يتعبد آناء الليل وأطراف النهار ـ ويذكر الله استجابة لما أمره الله به بقوله ﴿ ياأيها المزمل ـ قم الليل إلا قليلا ـ نصفه أو انقص منه قليلا ـ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ... ﴾ الآيات ـ وفى تنفيذه لأمر مولاه يقوله سبحانه ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ... ﴾ من سورة المزمل .

ولقد قالت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها (كان يقوم من الليل

حتى تنفطر قدماه)ـ وكانت تقول له : لماذا تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيقول لها (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟)

لقد كان صلى الله عليه وسلم يطيل القيام والركوع والسجود، بل كان يقرأ فى الركعة الأولى مثلا سورة البقرة وفى الثانية سورة آل عمران ... كان يطيل كل ذلك حينما كان يصلى منفرداً فى جوف الليل .

وكان صلوات الله عليه يستغرق فى صلاته بالليل ويبكى ـ كما قال مطرف (أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ـ يعنى يبكى) .

الاكثار من قراءة القران .

كان يكثر من قراءة القرآنـ وكان له فى كل يوم وظيفة معينة يتلوها لا يتركها أبدا الا لضرورة ـــ فـكان يقرأ القرآن مرتلا مفسراً مبينا حرفا حرفا ويقف عند آخر كل آية، يتمم المد فى حروف المد وكان يحب سماع القرآن من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أن يقرأ عليه القرآن ـ فلما أخذ فى القراءة استمع له صلى الله عليه وسلم وأخذ فى الخشوع والتضرع والبكاء حتى جرى ماء عينيه .

وكان يقرأ القرآن على كل حال (قائما وقاعدا ونائما ـ متوضئاً وغير متوضىء) ـ وكان يتغنى بالقرآن فى بعض الأوقات وقد روى عنه (زينوا القرآن بالأصوات الحسنة) وذلك من غير تكلف .

ولهذا كان أفضل الذكر قراءة القرآن ـ فقد قال صلى الله عليه وسلم (اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه) .

وقد روى أن جبريل كان مع النبى صلى الله عليه وسلم يوما - إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه . فقال هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم — فنزل منه ملك فقال . هذا ملك نزل إلى الأرض . ولم ينزل قط إلا اليوم — فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى من قبلك : فاتحة الكتاب — وخواتيم سورة البقرة — لن تقرأ بحرف منها الا أعطيته) .

ويقول صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) .

اساليب ذكر الله

وأساليب ذكر الله عديدة — منها مجالس العلم . وتلاوة القرآن الكريم . ومدارسته - والنظر فى الكائنات بعين العظة والاعتبار . وترديد اسم الله دون ابتداع فى وسيلة الذكر .

وذكر الله — دليل حبه وثمرة تقواه وسبيل الوصول إلى مرضاته وقد حرص المتصوفون على ملازمة مجالس الذكر لما يعرفون من مكانة الذاكرين كما أشارت إليه الأحاديث النبوية الشريفة .

فضل مجالس الذكر

أفضل المجالس ـ مجالس ذكر الله ـ قال تعالى ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾

فاذا جلس قوم يذكرون الله حفتهم الملائكة - فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده »

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ـــ فاذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ـــ قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم - ما يقول عبادى ؟ قالوا : يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول : هل رأونى قال فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال فيقول : وكيف لو رأونى قال يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحا ـــ قال يقول : فما يسألونى ؟ قال يسألونك الجنة ـــ قال يقول وهل رأوها ـــ قال يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ـــ قال يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا ، وأشدلها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ـــ قال فمم يتعوذون ؟ قال يقولون : من النار ـــ قال يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون : لا والله ما رأوها ـــ قال يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ـــ قال فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم ـــ قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة - قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم (١)

---

(١) ص ٢٢٢ صفوة صحيح البخارى

فهل هناك بعد هذا الفضل أ فضل من مجالس الذكر والذاكرين ؟

لقد أوضح الرسول فضل الاجتماع على الذكر وبين أن جليس الذاكرين يتدرج معهم فى الفضل وفى جميع مايتفضل الله به عليهم، إكراما لهم – ولو لم يشاركهم فى أصل الذكر .

وقد روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم (لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال — قال النبى صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وان تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)

فالله سبحانه وتعالى مع الذاكرين بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية فإن ذكره العبد بالتنزيه والتقديس والتعظيم فى نفسه بالقلب أو باللسان سرا — رحمه الله وآمنه إن كان خائفا وآنسه إن كان مستوحشا — وإن ذكره فى جمع — يذكره الله سبحانه وتعالى بحسن الثناء والوعد بالجزاء مسمعا بذلك الملائكة .

وفقنا الله لهذا الفوز — فالذاكر إذا ترقى اشتد إلهامه — فلا يرى غير الله . وهذا ما حرص عليه العابدون المتصوفون وقد جاء فى الخبر (إن لله فى كل يوم صدقة يمن بها على خلقه — وما تصدق بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره) .

ومن أسرار الذكر :

أن الذاكرين يتدرجون فى مقامات السلوك فيجاهدون أنفسهم الأمارة ـ وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد عودته من غزوة من الغزوات (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ـ قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ : قال جهاد النفس) .

فالنفس اللوامة ـ تلوم نفسها على ما مضى وتثوب إلى رشدها .

ثم تصير بصدق العزم على الطاعة روحا طيبة يلهمها الله ـ فيستنير القلب بتعريفه من الله ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾(١) .

فإذا خشى الذاكر ربه وخاف مقامه ونهى النفس عن الهوى واطمأن إلى الله ، وخافه ورجاه ورجع فى كل أحواله إليه ، واعتمد عليه وسلم له الأمور ـ أحبه الله ـ لأنه قد اشتد تعلقه بالله ـ فهو لا يعرف سواه ولا يخشى إلا إياه ـ فإذا ذكر الله خشعت نفسه ـ وإذا تجلى عليها الحق انتعشت ـ فهى فى القهر والبسط لا ترجو سواه ، فيرضيها برضاه عنها .

فتعود مرضية برحمته وبمحض فضله ، لتدخل فى عباده القائمين على ذكره وترجع فى الأخرى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ـ قال تعالى ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ـ إرجعى إلى ربك راضية مرضية ـ فادخلى فى عبادى ـ وادخلى جنتى ﴾(٢)

ولأن (لا إله إلا الله) أساس التوحيد ـ قال صلى الله عليه وسلم (أفضل الذكر لا إله إلا الله) وقال صلى الله عليه وسلم ـ (لقيت إبراهيم صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى بى ـ فقال يا محمد ـ أقرىء أمتك منى السلام

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النور (٢) الآيات ٢٧ — ٣٠ من سورة الفجر

وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غرسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) .

ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - أحب إلى مما طلعت عليه الشمس) .

أسعد أوقاتى فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

فى غمرة اللهفة والشوق لرسول الله ، والحجاج يتأهبون لتلبية نداء الله ويستعدون للتوجه إلى أول بيت وضع للناس ، يتمتعون بالطواف حول الكعبة المشرفة ، يدعون ربهم بقلوب وجلة وأفئدة خاشعة - (وأنا أكتب هذه السطور) أذرف الدمع شوقا إلى بيت الله الحرام وأذكر دعاء كنت أردده ويردده الألوف - عند الملتزم (بين الحجر الأسود وباب الكعبة) - اللهم يارب البيت العتيق - اعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ياذا الجود والكرم والفضل والمن والعطاء والإحسان اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . اللهم إنى عبدك وابن عبدك أقف تحت بابك ملتزم بأعتابك متذلل بين يديك . أرجو رحمتك ، وأخشى عذابك ، يا قديم الإحسان - اللهم إنى أسألك أن ترفع ذكرى ، وتضع وزرى وتصلح أمرى ، وتطهر قلبى وتنور لى فى قبرى ، وتغفر لى ذنبى ، وأسألك الدرجات العلى من الجنة .

لقد كنا فى لهفة إلى التمتع بأنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم - فما إن انتهينا من أداء الفريضة المقدسة حتى تهيأنا للسفر إلى المدينة المنورة - وقطعنا الطريق وكلنا نتطلع إلى اللحظة التى نسعد فيها بلقاء الرسول الحبيب .

وتذكرنا قول الرسول الكريم (من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة) . فكم كانت فرحتنا عظيمة حينما شاهدنا

مشارف المدينة ترحب بالمحبين ، وها نحن أولاء فى مثل خفة القطا ، نحث الخطى إلى مسجد الرسول ـ وها هوذا الحرم النبوى ـ هالة عظيمة من نور يسبح الألوف فى وهجها ـ يرددون (اللهم هذا حرم نبيك فاجعله وقاية لنا من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب) .

دخلت المسجد وحاولت أن أصل إلى الروضة الشريفة ولكن مجرد رؤيتها من بعيد جعلنى أتسمر مكانى ـ وأستند إلى أحد أعمدة المسجد (أسطوانة التوبة) ـ أروح فى دوامةمن الخفق والدموع . وتقدمت إلى رسول الله ... !! .

وألقيت السلام على حبيب الله وحبيبنا الذى طال شوقنا إليه ـ وما من أحد يسلم عليه إلا ورد الله عليه روحه حتى يرد السلام ـ كما ورد فى الحديث الشريف .

ودفعنى الشوق والحب إلى كثرة السلام والصلاة عليه ـ وأخذت أردد :

السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة والسلام عليك يارسول الله ، الصلاة والسلام عليك يانبى الله ، الصلاة والسلام عليك يا خير خلق الله ، الصلاة والسلام عليك يامن أرسله الله رحمة للعالمين ، الصلاة والسلام عليك يا سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين ، السلام عليك يا من وصفه الله بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين ، السلام عليك وعلى أصحابك أجمعين وعباد الله الصالحين .

أشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وأشهد أنك يارسول الله قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة.ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك كثيرا أفضل وأكمل وأطيب ما صلى على أحد من الخلق أجمعين ، اللهم اجز عنا نبينا أفضل ما جزيت أحدا من النبيين والمرسلين ، اللهم آته الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين والحمد لله رب العالمين ، اللهم لا تجعل هذا آخر العهد بقبر نبينا عليه الصلاة والسلام . واكتب لنا العودة إليه ـ ياذا الجلال والإكرام يا أرحم الراحمين .

لقد أحسست ومعى الجمع الحاشد ـ من زوار رسول الله كأننا فى محفل إلهى مهيب تحفنا الملائكة ويسلمون علينا ويستغفر النبى لنا .

فما أسعدنا بهذه الأوقات التى قضيناها فى رحاب رسول الله وفى الروضة الشريفة التى يحدثنا عنها الرسول فيقول (ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة).

لقد تذكرت ما ورد عن العتبى فقد قال : كنت جالسا عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ـ سمعت الله يقول ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾(١) وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ـ ثم أنشأ يقول : ـ

---

(١) الآية ٦٤ من سورة النساء

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

يقول العتبى : ثم انصرف الأعرابى - فغلبتنى عينى - فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم - فقال « ياعتبى الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له » .

مرت الأوقات سريعا - وغادرنا المدينــــة المنورة مرغمين فنحن ملزمون بقيود السفر وقد حز فى نفوسنا فراق رسول الله - وكم كنا نود أن تطول الإقامة - ولكن ... !

ولا زلت أكرر الدعاء الذى ودعت به مسجدالرسول: اللهم لاتجعل هذا آخر العهد بمسجد رسولك وحرمه ويسر لى العودة إلى الحرمين سبيلا سهلا وارزقنى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

وهكذا كان دعاء جميع المحبين لرسول الله عند وداعهم للحرم الشريف - ومهما أوتى المحبون من القدرة على التعبير لم يستطيعوا أن يوفوا أيام المدينة المنورة حقها من الانطباعات والاعتبار .

الصلاة على النبى عبادة :

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من البخل أن أذكر عنده ولا يصلى علىّ » .

والصلاة من الله على النبى صلى الله عليه وسلم معناها ثناء الله عليه وتعظيمه ، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك من الله تعالى ، وفضائل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم كثيرة ، فهى دلائل الخيرات ، وعند الله

قربات ورحمات - قال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾(١).

والصلاة على النبي مقام من الجلال عظيم - فيه يتأسى العبد بخالقه فى الصلاة على حبيبه - وهى منزلة كريمة يقتدى فيها الإنسان بالملائكة الكرام - قال تعالى ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾(٢) وفى أدائها امتثال وطاعة لأمر الله .

والصلاة عليه دليل المحبة لذاته الشريفة ومظهر الشوق إليه، والمواظبة عليها أداء لما يجب نحوه واعتراف بحقه وفضله، وإقرار فعلى بالتبعية له ، وعروة وثقى تربط القلب بأسعد المخلوقات - قال صلى الله عليه وسلم (ثلاثة تحت عرش الله تعالى يوم القيامة .. قيل من هم يارسول الله؟ قال : من فرج عن مكروب من أمتى ، وأحيا سنتى ،وأكثر من الصلاة على) .

والصلاة عليه فخر لصاحبها وتشريف لقائلها - فمن من المسلمين لايطرب فرحا وسرورا حينما يرد عليه السلام خير الأنام؟ - قال صلى الله عليه وسلم (مامن أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام) .

وقال (أسمع صلاة أهل محبتى وأعرفهم ، وتعرض على صلاة غيرهم عرضا) ، وقيل لرسول الله - من القوى فى الإيمان بك ؟ - فقال (من آمن بى ولم يرنى فهو مؤمن بى على شوق منه - وصدق فى محبى ، وعلامة ذلك أنه يود رؤيتى بجميع مايملك - أو بملء الأرض ذهبا - ذلك المؤمن حقا المخلص فى محبتى صدقا) .

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنفال (٢) الآية ٥٦ من سورة الأحزاب

والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم كنز من الحسنات ـ فقد ورد في الأثر (أصبح رسول الله صلى عليه وسلم ـ يوما طيب النفس يرى فى وجهه البشر فقالوا يارسول الله أصبحت طيب النفس يرى فى وجهك البشر . . قال : أجل ـ أتانى آت من ربى فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ورد عليه مثلها) .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر فاذا أتوا عليها حفوا بها، ثم بعثوا رائدهم إلى السماء، إلى رب العزة تبارك وتعالى ـ فيقولون ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على محمد ويسألونك لآخرتهم ودنياهم ـ فيقول تبارك وتعالى : غشوهم رحمتى) .

وقال (ألا أدلكم على خير الناس وشر الناس وأكسل الناس وألأم الناس وأسرق الناس ؟ قيل يارسول الله بلى . قال خير الناس من انتفع به الناس، وشر الناس من يسعى بأخيه المسلم ، وأكسل الناس من أرق فى ليلة فلم يذكر الله بلسانه وجوارحه ، وألأم الناس من إذا ذكرت عنده لم يصل على ، وأسرق الناس من سرق صلاته ، قيل يارسول الله كيف يسرق صلاته ؟ قال لا يتم ركوعها وسجودها) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر : والذكر بالصلاة على الرسول صلوات الله عليه ثماره شتى وفوائده عدة ـ فضلا عن العبادة نفسها ـ ونذكر من هذه الصيغ صيغتين ـ الأولى منها للخروج من الضيق ولتيسير المعسر وللخروج من الشدة، وللفرج على جميع أنواعه، وللوصول

إلى الخير ـ وقد أخذناها عن العارف بالله الشيخ أحمد أبو هاشم وهى مايلى : ـ

اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرءوف الرحيم الذى أخبر عن ربه الكريم إن لله تعالى فى كل نفس مائة ألف فرج قريب وسلم .

أما الثانية ـ فإننا نسميها الصيغة التجريدية لأنها لاتشعر بطلب زائد عن العبادة ، وهى قياس موفق على ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر (سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) .

والصيغة هى مايلى :

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك .

وإننا ننصح بتكرارها كلما أتيح للانسان ذلك . اهـ

فاللهم ياسميع يامجيب ، يامن شرفتنا وأكرمتنا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلتنا من أمته وأهل محبته ، أدعوك بحق ما كتبت على نفسك أنت وملائكتك الكرام من الصلاة والسلام على خير الأنام ، أن تطلق لسانى بأجمل الصلوات وأن تلهم وجدانى أزكى التحيات فى كل الأوقات ، وأن تتقبل صلاتى وسلامى مع مايصعد إليك من صلوات طيبات ، وتسليمات عاطرات تهديها أرواح فى حب النبى هائمة .

وننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الرواد الأوائل فى التصوف - بمعناه الحقيقى (حياة الزهد والتقشف والتأمل الخ) - والذين تأثروا فى عبادتهم بالنبى صلى عليه وسلم .

من هؤلاء الرواد : الذين اجتهدوا فى طاعة الله حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم - سيد الشهداء وابنه زين العابدين ، ثم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم على بن أبى طالب ، وأبو هريرة ، وبلال وخباب بن الأرت وأبو الدرداء - مكتفين بذكر هذه النماذج الطيبة فى الزهادة والتقوى فالحديث عن الصحابة جميعا يطول ذكره فجميعهم كالنجوم فى الاهتداء كما قال عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) .

الباب الثالث

التصوف فى بيت النبوة

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا) .

لقد كان الحسين رضى الله عنه ـ عظيم الشبه بجده صلوات الله عليه فقد ورث عنه خير ما يرثه وريث عن مورثه ـ حاز أكثر الفضائل وتكاملت فى شخصه أحسن الشمائل .

يقول العباس رضى الله عنه ـ كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذ دخل على بن أبى طالب ـ فسلم ـ فرد الرسول السلام عليه ، وقام وعانقه وقبّل ما بين عينيه وأجلسه عن يمينه ـ فقال العباس يا رسول الله أتحبه ؛ فقال النبى (يا عم والله ـ لله أشد حبا له منى ـ إن الله عز وجل جعل ذرية كل نبى من صلبه وجعل ذريتى من صلب هذا) .

ولقد قال على كرم الله وجهه ـ مشيراً إلى ولديه الحسن والحسين ـ إنهما إن هلكا انقطع نسل محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الأمة

(١) منزلة سيد الشهداء .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الإمام الحسين أحاديث كثيرة ، منوهة بعظم قدره ومشيرة إلى ارتفاع ذكره ــ منها ــ

روى عن ابن حيان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ـ وفى لفظ ـ إلى سيد شباب أهل الجنة ـ فلينظر إلى الحسين بن على) لقد كان رضى الله عنه كريما سخيا شجاعا أبياً مخلصا وفيا عابدا تقيا ـ كثير الصوم والصلاة والصدقة والحج ـ حتى قيل إنه حج خمسا وعشرين حجة .

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصومها غير أيام رمضان ـ ولا يفوته الحج إلا للضرورة .

هكذا كانت حياته رضى الله عنه ـ عبادة خالصة وتقوى دائمة ، وتصوف صادق - يديم الصلة بالله ، ويتبتل فى خشوع حبا لله ، ويجزل العطاء استجابة لأمر الله .

وكان يتوج كرمه بهذه الحكمة الطيبة (اعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ـ فلا تملوا الناس فتعود نعم الله عليكم نقما) .

وقد ودع أباذر الغفارى ـ حينما أخرج من المدينة ـ فقال (يا عماه إن الله قادر أن يغير ما قد ترى ـ والله كل يوم فى شأن ـ وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وماأغناك عما منعوك وأحوجهم إلى مامنعتهم فاسأل الله الصبر والنصر واستعذ به من الجشع والجزع ـ فإن الصبر من الدين والكرم ـ وإن الجشع لا يقدم رزقا ، والجزع لا يؤخر أجلا) .

وكان الحسين يومئذ فى نحو الثلاثين من عمره ـ فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة ، منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها فى مصرع كربلاء .

وقد ورد فى محاورة له مع أحد سائليه ـ أنه قال له ـ يا هذا نحن قوم لا نعطى المعروف إلا على قدر المعرفة ـ فان عرفت أعطيناك فقال الرجل : سل ما تريد ـ فقال الحسين : ما النجاة ؟ قال : التوكل على الله ـ قال : ما الهمة ؟ ـ قال : الثقة بالله ـ قال : فما يزيد المرء ؟ أجاب ـ علم وحلم ـ فقال : فان لم يكن ؟ قال : أدب وتواضع ـ قال الحسين : فان لم يكن ؟

قال الرجل : سبحان الله : لا علم ولا حلم ولا أدب ولا تواضع ؟ !
والله ما أرى إلا أن تنزل عليه صاعقة من السماء فتذهب به .

فأعجبه ما قاله الرجل ، وأعطاه ما أراد ـ ونبه المستمعين إلى الصفات التى يريد أن يتحلى بها المتقون العابدون ـ ولقد حذر معاوية ابنه يزيد من التعرض للامام الحسين رضى الله عنه فقال له : (احذر أن تتعرض له إلا بسبيل خير وامدد له حبلا طويلا ، وذره يذهب فى الأرض كيف شاء ولا تؤذه ولكن أرعد له وأبرق ، وإياك والمكاشفة له فى محاربة بسيف أو منازعة ، بل أعطه وقربه وبجله ، فإن جاء إليك أحد من أهل بيته فوسع لهم وارضهم ، فانهم أهل بيت النبى ـ أهل الرضا والمنزلة الرفيعة ، وإياك يابنى أن تلقى الله بدمه فتكون من الهالكين ـ فقد حدثنى ابن عباس فقال . حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته ـ وهو يجود نفسه ـ وقد ضم الحسين إلى صدره وهو يقول (هذا من أطايب أرومتى وأبرار عترتى ، وخيار ذريتى ، لابارك الله فيمن لم يحفظه من بعدى) .

قال ابن عباس ثم أغمى على رسول الله ساعة ثم أفاق ـ فقال : (ياحسين إن لى ولقاتلك يوم القيامة مقاماً بين يدى ربى ، وخصومة ـ وقد طابت نفسى إذ جعلنى الله خصماً لمن قاتلك يوم القيامة) .

يابنى فهذا حديث ابن عباس ، وأنا سمعت النبى يقول (أتانى يوماً حبيبى جبريل فقال يامحمد إن أمتك تقتل ابنك حسيناً وقاتله لعين هذه الأمة) . وقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم قاتل حسين مراراً ـ فانظر يابنى ـ ثم انظر وإياك أن تتعرض له بأذى ، فإنه من ماء رسول الله ، وحقه والله يابنى عظيم ـ وقد رأيتنى كيف كنت أحتمله فى حياتى وأضع له رقبتى وهو يجابهنى

بالكلام الذى يوجع قلبى فلا أجيبه ، ولا أقدر له على حيلة ، لأنه بقية أهل الله فى أرضه ـ فى يومه ، وقد أعذر من أنذر .

هذه وصية معاوية لابنه ـ ولكن النفس أمارة بالسوء ـ ونسى يزيد وصية أبيه ومكانة الحسين رضى الله عنه ـ نسى أنه حفيد رسول الله وحبيبه نسى تصوفه وتقواه وحبه لله ومنزلته عند الله ـ فأمر بقتاله .

وقضية قتاله لا أحب بسط القول فيها ـ فإنها قضية لم يجر فى الاسلام أعظم فحشا منها .

ولقد قاتل الحسين أعداءه بكل قوة مع كثرة عدوه ـ ولما أصيب ـ رفع رأسه إلى السماء وقال (اللهم إن كنت حبست النصر عنا من السماء فاجعل ذلك لما هو خير لنا وانتقم من هؤلاء الظالمين) .

وقتل الحسين بيد آثمة !! — وضج الناس بالعويل — وهم يخاطبون ذلك السفاح الأثيم (إنك قتلت الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ! قتلت أعظم العرب خطرا — فبأية عين تنظر إلى رسول الله إذ يقول لك ولقومك : قتلتم عترتى وانتهكتم حرمتى فلستم من أمتى ....

وذرفت الدموع وتصاعدت الآهات واحترقت الأنفاس حزنا وألما على استشهاد سيد الشهداء !!

(ب) زين العابدين :

ابن سيد الشهداء ولقب بهذا اللقب — لكثرة عبادته وزهده وتقواه وورعه ونسكه ، قال عنه ابن حجر : زين العابدين هو الذى خلف أباه علما وزهدا وعبادة — وكان إذا توضأ للصلاة اصفر لونه . فقيل له فى ذلك ، فقال إنكم لا تدرون بين يدى من أقف !! وقال طاووس اليمانى

رأيت رجلا يصلى فى المسجد الحرام تحت الميزاب يدعو ويبكى فى دعائه. فجئته حين فرغ من الصلاة — فاذا هو على بن الحسين — فقلت يا ابن رسول الله — رأيتك على حالة خوف وبكاء، ولك ثلاثة أرجو أن تؤمنك من الخوف ، أحدها أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم — والثانية شفاعة جدك — والثالثة هى رحمة الله تعالى .

فقال ياطاووس: أما أنى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يؤمننى. وقد سمعت الله تعالى يقول ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ — وأما شفاعة جدى فلا تؤمننى لأن الله تعالى يقول ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ — وأما رحمة الله — فإن الله يقول ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ولا أعلم أنى محسن .

هكذا كانت حياة زين العابدين تصوف دائم — وعبادة صادقة — لا يركن إلى شرف النسب — ولا يقصر فى العمل طمعا فى رحمة الله — كما يفعل بعض المتوكلين ، ولا يسلك مسلك أولئك المدعين للتصوف فيتركون الصلاة — ويدعى بعض أتباعهم أن أرواحهم تذهب للصلاة فى البيت الحرام فى جماعة ثم تعود (كما سمعت منهم ؟ !)

فالصلاة عبادة روحية بدنية ، حافظ على أدائها إمام المتقين — فى جماعة وفى خلوة ، والصحابة والتابعون من بعده كذلك .

وعلينا أن نأخذ العظة والاعتبار من السابقين ،ونقتفى آثارهم ، لعل الله يوفقنا إلى مايحبه ويرضاه .

ولقد بلغ من حب الناس لعلى زين العابدين — أنه بعد أن طاف بالبيت وأراد تقبيل الحجر الأسود — تنحى الناس له حتى تسلمه . وقال فى مدحه الفرزدق ـ وهو شاعر أموى : ـ

هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله   بجده أنبياء الله قد ختموا
إذا رأته قريش قال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

وقد روى أنه رضى الله عنه حج عشرين حجة .

وحين حل به مرض الموت عاده جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: كيف أنت يابن رسول الله ؟ قال: فى عافية والله المحمود على ذلك ـ فكيف أصبحتم أنتم جميعا ؟ ـ قالوا : أصبحنا والله لك يابن رسول الله محبين وادين فقال لهم: من أحبنا لله أسكنه الله فى ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا بالجنة ـ ومن أحبنا لغرض دنياه آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب .

الصحابة والتصوف

سلك الصحابة رضوان الله عليهم مسلك رائدهم الأول صلى الله عليه وسلم فزهدوا فى الدنيا وأعرضوا عن زخارفها ، وحرصوا على طاعة ربهم وعبادته وتقواه . وإذا عزف المؤمن عن كروب الدنيا ، واتجه بكلياته إلى الآخرة، عوضه الله تعالى خيراو تولاه فى جميع أموره . فقد قال. (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه)(١)ولا شك أن الصحابة الأطهار قد بلغوا فى حب الله ورسوله والتزام الطاعة ـــ الغاية المثلى ـــ وقد تفضل الله عليهم فعلمهم بعد جهل ، ووحدهم بعد اختلاف، وآمنهم من خوف ، وقد فاقوا بفضل المعرفة غيرهم وطهرت قلوبهم وأداموا ذكر الله ، وبذلوا الطاقة والجهد نصيحة لأنفسهم ، وطلبا للحظوة عند سيدهم فكانوا بذلك عن حركات الطبع متجافين متشاغلين -- وعن كل فترة تميل بهم إلى الراحة نافرين ، وعلى العمل المقرب لهم إلى الله عاكفين .

أمات العلم بالله أهواءهم ، وغلب لهم أعداءهم ، وجمع لهم شملهم، وأحكم لهم أمرهم، وكان التوفيق لهم صاحبا ،وخفى اللطف من الله دائماً والتأييد لهم من سيدهم مرشدا ، ترقوا إلى مقامات القرب ، وصارت أرواحهم مع الله فلم يروا غيره سبحانه فشغلهم به عما سواه .

(١) على بن أبى طالب .

ونذكر منهم على سبيل المثال، الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو أول من آمن من الصبيان ، فلم يتورط فيما تورطت فيه قريش من العكوف على عبادة غير الله ،وتربى فى بيت النبوة فأخذ العلم من مورده

(١) الآيتان ٢، ٣ من سورة الطلاق

وتمتع بأنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم كيف تكون العبادة وكيف تكون التقوى .

وكان رضى الله عنه سيد الزهاد فى الدنيا . الجانحين عن الاغترار بزخارفها والانخداع بها وبباطلها ـ وكان أخشن الناس مأكلا وملبسا ، طلق الدنيا ، وكانت الأموال تجبى إليه من جميع بلاد الاسلام — إلا الشام — وأقبل على عبادة ربه ، بقلب يملؤه الإيمان الخالص ويعمره الولاء المحض ، فكان إماما فى العبادة والورع والتقوى ، وماظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده ، أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير ، فيصلى عليه والسهام تقع بين يديه ، وتمر على صماخيه يمينا وشمالا فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته .

وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنة البعير ، لطول سجوده ، وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته ، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وما تضمنته من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزته والاستخذاء له ، عرفت ما ينطوى عليه من الإخلاص ، وفهمت من أى قلب خرجت وعلى أى لسان جرت ؛ وكل خطبه تفيض بالتحذير من غرور العاجلة واستمرائه لذتها الفانية ، وإخلاص العمل والتزود لدار الإقامة والنعيم .

وصدق فى تقواه وإيمانه ، كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه ، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة الدنيا — وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه زوجته بيديها (وهى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

قال عمر بن عبد العزيز (أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب) .
وقال سفيان (إن عليا لم يبن آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة) .

وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ، إيثارا للخصاص التى يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام .

وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال (دخلت على عليّ رضى الله عنه فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته ، وكسر يابسة ـ فقلت يا أمير المؤمنين ـ أتأكل مثل هذ ؟ فقال لى : ياأبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ، فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به »(١) وحسبنا فى بيان غرّ شمائله ، وصف ضرار الصدائى له ، وقد وفد على معاوية فقال له ياضرار صف لى عليا ـ قال : اعفنى يا أمير المؤمنين ـ قال لتصفنه ـ قال أما إذا كان لابد من وصفه ـ فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى يقول فضلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ماقصر ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول يادنيا غرى غيرى ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ ـ هيهات هيهات ـ قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر

---

(١) ١٠٦ ترجمة على .

ووحشة الطريق) فبكى معاوية رحمه الله ، وقال رحم الله أبا الحسن فلقد كان كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار ؟

قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها ! !

ولقد وصف التقوى فى إحدى خطبه فقال . عليكم بالتقوى فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم ، وبصر عمى أفئدتكم ، وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم ، وطهور دنس أنفسكم ، وجلاء غشاء أبصاركم وأمن فزع جأشكم وضياء سواد ظلمتكم .

فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها ، واحلولت له الأمور بعد مرارتها ، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها ، وأسهلت له الصعاب بعد أنصابها ، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها ، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها ، وتفجرت عليه النعمة بعد نضوبها ، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها .

كلمة عامة فى أصحاب رسول الله .

كان أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على دروس الهدى فلا يتخلون عنها إلا لضرورة ، وكانوا يطبقون فقههم منه على سلوكهم فى سرهم ونجواهم ، ولذلك كانوا على أرفع مستوى فى طاعة الله وطاعة رسوله ، وكانوا حريصين على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا لا يقبلون مع السنة رأى أحد ، مهما كان شأنه ووجهوا الأمة إلى السبيل القويم ، وأبوا أن يماروا فى دين الله — وقد كان لهم الفضل الكبير فى حمل أحكام الشريعة وحفظها وتبليغها إلى من بعدهم .

والآيات التى وردت فى فضلهم كثيرة ، منها قول الله عز وجل ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان

رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ (١).

وقد وردت أحاديث كثيرة تشهد بفضلهم ، منها ، قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه) ولقد حفظ لهم التاريخ مآثر خالدة أبد الدهر — وإن رجالا أوتوا من العزيمة والقوة والتضحية والورع والتقوى ، جديرون بالمحبة والتقدير والاقتداء بهم .

قال عبد الله بن مسعود (من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا ـ قوما اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) .

(٢) الصحابى الجليل أبو هريرة

ومن هؤلاء الصحابة أبو هريرة — الذى لازم النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخر حياته ، وقصر نفسه على خدمته ، وتلقى العلم الشريف منه صلى الله عليه وسلم ، فكان يمشى معه ويدخل بيته ، ويحج ويغزو معه ـ يده فى يده ـ يرافقه فى حله وترحاله ـ فى ليله ونهاره ، حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب .

لقد دعا له صلى الله عليه وسلم حينما رجاه فى ذلك ـ بعد أن أسلمت أمه ـ فقال (اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة) .

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة التوبة

قال أبو هريرة (فليس يسمع بى مؤمن ولا مؤمنة إلا أحبنى)

وكان أبو هريرة يحب من أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد لقى أبو هريرة الحسن بن على رضى الله عنهما ـ فقال له : أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ـ فرفع القميص وقبل سرته) .

كان أبو هريرة يسير على هدى الرسول الأمين ـ ويقتدى به ويحذر الناس من الانغماس فى ملاذ الدنيا وشهواتها ، يرشد الأمة إلى الحق والصواب .

فقد مر بقوم يتوضأون ـ فقال أسبغوا الوضوء فانى سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول (ويل للأعقاب من النار) .

ودخل دار مروان بن الحكم ـ وهى تبنى ـ فرأى فيها تصاوير ـ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يقول الله عز وجل ـ ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى فليخلقوا ذرة) .

وكان يقول : ثلاث أوصانى بهن خليلى صلى الله عليه وسلم ، لا أدعهن أبدا : الوتر قبل أن أنام ـ وصيام ثلاثة أيام من كل شهر ـ والغسل يوم الجمعة .

وقد سأل عثمان النهدى ـ كيف تصوم ؟ قال : أصوم من أول الشهر ثلاثا ـ كما كان يصوم الاثنين والخميس .

وكان أحيانا يصوم مع بعض أصحابه ويجلسون فى المسجد يقولون نطهر صيامنا ، وكان يحب التطهر ويخشى الوقوع فى المعصية ـ يخشى الله كثيرا سرا وعلانية فإذا مرت به جنازة ـ يقول : روحى فإنا غادون ـ أو اغدى فإنا رائحون موعظة بليغة ، وغفلة سريعة .

وكان يسيئه أن يرى بعض المصلين يتأخرون يوم الجمعة في حضورهم إلى الجامع حينما يخطب الإمام ـ فيقول (لأن يصلى أحدكم بظهر الحرة خير له من أن يقعد حتى إذا قام الإمام يخطب جاء يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة) ـ وفى قوله هذا دعوة المصلين إلى الحضور فى أول الوقت عملا بالسنة الشريفة ـ فقد روى الإمام أحمد، عن أبى هريرة، عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فاذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا فاستمعوا الذكر) .

وإلى جانب العمل بهذا الحديث، فان قول أبى هريرة صادر عن نفس طيبة مرهفة الحس تشعر بشعور الآخرين، وتراعى إحساسهم ـ فقد أدرك ما فى تخطى رقاب الناس من إزعاج للمصلين وإضاعة بعض الفائدة عليهم .

وكان يحض الناس على الاقتداء بالرسول الكريم، وعلى العمل بسنته الطاهرة ـ وكان يطبق ذلك على نفسه وأهله، فقد سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم قوله (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته) فكان هذا ديدنه ـ يصوم النهار ويقوم الليل ـ يقوم ثلث الليل ثم يوقظ امرأته فتقوم ثلثه ثم توقظ هذه ابنته ثلثه ـ وهكذا كانوا يتناوبون العبادة فى الليل ـ وقد شهد بذلك ضيوفه وإخوانه الذين خالطوه وعرفوه وعاشوا معه .

وكان ورعا تقيا يحب التقرب إلى الله، وكثيرا ما كان يقابل المسىء بالحسنى ـ من هذا أن زنجية كانت له، قد غمتهم بعملها فرفع عليها السوط

ثم قال : لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك فأنا أحوج ما أكون إليه ـ اذهبي فأنت حرة لله عز وجل !!

وكان يكثر من التسبيح والتكبير فى أطراف النهار والليل ـ يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة ـ ويقول (أسبح بقدر ذنبى) وكان يكثر الاستعاذة بالله من النار ، ويذكر الناس بالله عز وجل ويحثهم على طاعته .

وكثيرا ما كان يحذر الناس من فساد الزمان ، فيقول : إذا رأيتم ستا فان كانت نفس أحدكم فى يده فليرسلها ـ فلذلك أتمنى الموت ـ أخاف أن تدركنى : إذا أمرت السفهاء ، وبيع الحكم ، وتهون بالدم وقطعت الأرحام ، وكثرت الجلاوزة ، ونشأ نشء يتخذون القرآن مزامير .

لقد صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع يطوى نهاره وليله من غير أن يجد مايقيم صلبه .

وروى عنه أنه كان يطوف بالسوق ثم يأتى أهله ، فيقول هل عندكم من شىء ؟ فإن قالوا ـ لا قال ـ فانى صائم !

فلم يكن أبو هريرة نهماً ذا بطنة ، وما كان فى يوم عبداً لشهوة بطنه بل كان يكتفى بما يعلل به نفسه أو يمسك عليه رمقه ـ فاذا ما أصبح لديه خمس عشرة تمرة ـ أفطر على خمس ، وتسحر بخمس ، وأبقى خمسا لفطره .

لقد صبر على الفقر طويلا حتى أفضى به إلى الظل المديد ، والخير الكثير ، وبارك الله له فى ماله ، فكان كثير الشكر لله ـ يذكر دائما أيام فقره .

ويذكر النـاس نعم ربهم ، ويدعوهم إلى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

من ذلك أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية — فدعوه أن يأكل — فأبى — وقال (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ، وما شبع من خبز الشعير) .

ويأتيه ضيوف فيبعث إلى أمه — ويقول — أطعمينا شيئا فترسل إليه ثلاثة أقراص فى الصفحة ، وشيئا من زيت وملح — فلما وضعها رسوله بين أيديهم — كبر أبو هريرة — وقال : الحمد لله الذى أشبعنا من الخبز بعد أن لم يكن طعامنا إلا الأسودين التمر والمـاء .

وكان رضى الله عنه عفيف النفس مع فقره ، مبسوط الـكف جواداً يحب الخير ، ويكرم الضيوف ، لا يبخل بما بين يديه وإن كان قليلا ، فلم يحمله فقره على الشح ، ولم يجعله دنىء النفس، يتـكفف الناس ، بل آثر أن يأكل الجوع بطنه من أن يأكل هو فتات الموائد .

وفى عسره كله كان ضيف الإسلام وضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الـكرام .

حتى إذا ما يسر الله عليه لم يجعله غناه قاسى القلب ، متحجر الفؤاد ، بل كان علما من أعلام الجود والـكرم .

قال الطفاوى : نزلت على أبى هريرة بالمدينة ستة أشهر ، فلم أر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا أشد تشميرا ولا أقوم على ضيف من أبى هريرة .

وكان طيب الأخلاق صافى السريرة يحب الخير حتى أنه تصدق بدار له فى المدينة على مواليه .

كان يحب أن يتصدق ليشعر بالراحة النفسية .

يروى عنه أنه قال (درهم يكون من هذا ـ وكأنه يمسح العرق عن جبينه ـ أتصدق به ـ أحب إلى من مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف من مال فلان) .

وقد انتدبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بعوثه ـ وودعه فى إحدى السرايا لحبه إياه ـ فقد روى عنه (ودعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه) .

ولم يترك الجهاد فى سبيل الله بعد وفاة رسول الله ـ وكان يردد ماسمعه عن النبى صلى الله عليه وسلم (لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم ـ ولا يجتمع شح وإيمان فى قلب رجل مسلم) .

وقد اشترك فى حروب الردة ـ وحرب اليرموك .

تواضعه :

نظر أبو هريرة إلى الدنيا بعين الراحل عنها — وحينما تولى الإمارة لم تدفعه إلى الكبرياء بل أظهر تواضعه وحسن خلقه .

فقد روى أنه حينما استخلفه مروان على المدينة ـ ركب حماراً قد شد عليه برذعة وفى رأسه خلبة من ليف ، وسار فى الطرقات — فيلقى الرجل فيقول : (الطريق قد جاء الأمير) ويمر فى السوق يحمل الحطب على ظهره ـ فيقول لثعلبة : (أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه) يطلب

أن يوسع له مقـدار ما يمر هو والحطب على ظهره — فهل بعد هذا تواضع ؟ !

ويقول أبو رافع : دعانى أبو هريرة - وهو أمير - إلى عشاءه بالليل — فأنظر فإذا هو ثريد بالزيت !

وكان يدعو الناس إلى الخير ويحملهم على حسن الخلق — ومن ذلك مارواه البخارى عنه — أنه أبصر رجلين — فقال لأحدهما : ماهذا منك (أى ما صلته بك) ؟ فقال : أبى فقال : (لا تسمه باسمه ، ولا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله) وكان يدعو إلى صلة ذوى القربى وينهى عن قطع الرحم — فيقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أعمال بنى آدم تعرض على الله تبارك وتعالى عشية كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم) .

ومن حسن أخلاقه أنه كان يؤاكل الصبيان ويعطف عليهم . وكان يردد قول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تنزع الرحمة إلا من شقى) .

هـذا هو أبو هريرة الذى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم (أبو هريرة وعاء من العلم) .

دخل عليه أبو سلمة بن عبد الرحمن وهو مريض — فقال : اللهم اشف أبا هريرة ، فقال أبو هريرة : اللهم لا ترجعنى عادها مرتين ثم قال : يا أبا سلمة إن استطعت أن تموت فمت — فو الذى نفس أبى هريرة بيده — ليوشكن أن يأتى على العلماء زمن يكون الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر — أو ليوشكن أن يأتى على الناس زمان يأتى الرجل قبر المسلم — فيقول : وددت أنى صاحب هذا القبر .

وبـكى أبو هريرة — فقيل له ما يبكيك يا أبا هريرة : — قـال :

أما أنى لا أبكى على دنياكم هذه ، ولكن أبكى لبعد سفرى وقلة زادى — أصبحت فى صعود مهبطه على جنة أو نار — فلا أدرى أيهما يسلك بى !!

ولما حضرته المنية — قال :

لا تضربوا على فسطاطا ولا تتبعونى بنار وأسرعوا بى إسراعاً — فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا وضع الرجل الصالح أو المؤمن على سريره قال قدمونى - وإذا وضع الرجل الكافر - أو الفاجر - على سريره - قال ياويلتى : أين تذهبون بى ؟

لقد مات أبو هريرة بعد أن نشر العلم ، وأفتى الناس أكثر من عشرين سنة وكان طلاب العلم والتقوى لا ينقطعون عنه - فقد كان من أعلم الصحابة بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رحمه الله رحمة واسعة - ورضى الله عنه - فقد بقى علما لكل من أتى بعده يقتدى به ويهتدى بسيرته فكان مثلا طيبا للمتقين الزاهدين من السلف الصالح .

٣ - بلال مؤذن الرسول :

وهذا صحابى جليل لقى فى سبيل ربه الكثير من الإيذاء ، وتعرض من أجل حب الله إلى أقسى أنواع التعذيب ! فما تراجع ولا حدثته نفسه بالاستجابة إلى سادته ، حتى يرحم نفسه مما تعرض له من إهانات متتالية ، ذلكم هو (بلال) مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان يترنم بصوت خفيض عذب فى خلوته ببيته - كله حلاوة وكله خشوع - فيسترق أمية (سيده) السمع . فثار بركان الغضب فى ـه واندفع كالعاصفة إلى داخل الغرفة . ولطم بلالا لطمة شديدة ضع فى عنقه حبلا من مسد ، وجذب الحبل جذبة شديدة آلمت بلالا فع به

إلى صبيانه يعذبونه وهو يردد (أحد ـ أحد) ويهجم أمية عليه ويقبض على عنقه بيديه ويضغط عليه ثم يدفعه ويتدحرج على الأرض وهو يردد (أحد ـ أحد) .

ثم يقيدونه ويضجعونه على الرمضاء ويتركونه للشمس تقذفه بسهامها فيتلوى صابراً ، ولقد ظل صابراً على التعذيب ينتظر الفرج من الله بقلب عامر بالإيمان ممتلىء باليقين .

وإذا بفرج من الله يغيثه مما هو فيه من عذاب فى حب الله ، ويسرع أبو بكر نحوه ويشتريه من سيده ، ويفك قيده ويزيح الصخرة عن صدر بلال ثم يطلق سراحه

وقد اشترك فى معارك حربية عديدة من أجل انتشار كلمة التوحيد وحتى يسود نور الايمان .

ولقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ رداً على من أراد أن يسمع رأيه فيه ـ (أين أنتم من بلال ؟ أين أنتم من رجل من أهل الجنة؟) ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا المعذب فى سبيله ، أول من يعلن على الملأ الأذان للصلاة ـ وكأنه يعلنها صيحة مدوية لمن تحدوه وآذوه وحاولوا أن يثنوه عن توحيدالله ـ فيقول لهم لقد كنتم تحاولون أن تمنعونى عن الهتاف بالوحدانية ، فهاأنذا اليوم أصيح فى الناس جميعا أن أقبلوا على الفلاح ـ هلموا إلى عبادة الله وطاعته .

وهكذا شأن الدعاة إلى الله ـ لايأبهون لما يتعرضون له من أساليب التحدى ويواصلون دعوتهم حتى يتحقق وعد الله .

أول أذان فى الاسلام :

كان بلال أول من ارتفع صوته يملأ الآفاق بالأذان للصلاة ، فقد روى أنه

بينما كان رسول الله فى المسجد ـ إذ أقبل عبد الله بن زيد متهلل الوجه منشرح الصدر واتجه إلى النبى وقال : طاف بى يارسول الله الليلة طائف فبينما كنت بين النائم واليقظان ـ مر بى رجل عليه ثياب خضر يحمل ناقوساً فى يده فقلت له ياعبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة ـ قال : ألا أدلك على خير من ذلك ! قلت وما هو ؟ ـ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا اله إلا الله ـ أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد ان محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

استمع رسول الله إلى رؤيا عبد الله فبان البشر فى وجهه وشاع الاطمئنان فى نفسه ، فقد اهتدى المسلمون أخيرا إلى مايدعوهم إلى الصلاة دون محاكاة أو تقليد ودون أن يخشوا أن يختلط عليهم الأمر إن دق الناقوس ، لقد أصبح الأذان لهم وحدهم ، وبات الناقوس للنصارى لن يشاركهم المسلمون فيه ، والتفت النبى إلى عبد الله وقال : إنها رؤيا حق إن شاء الله ـ فقم مــــع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتا منك .

ارتفع صوت بلال عذباً يدعو الناس للصلاة ، وانساب فى أجواء يثرب حلواً نديا وانسكب فى آذان القوم ، فهز أفئدتهم وخرجوا من دورهم مأخوذين ويمموا صوب المسجد ليروا ما هذا الحدث الجديد ـ ومن ذلك البلبل الصداح ؟ وبلغ أذان بلال سمع عمر بن الخطاب وكان راقداً فى داره فاعتدل وأرهف السمع وتساءل (ما أسمع ؟ أفى يقظة أنا أم فى منام ؟ إن ما أسمعه هو عين ماسمعته فى رؤياى ـ أما زلت أحلم ! ولكن

لا . فهذا صوت بلال ولا ريب). وهب عمر من نومه ، وخرج من داره مسرعا ، واتجه إلى الرسول وهو يجر رداءه

وما إن لمح النبى حتى هتف (يانبى الله والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(فلله الحمد) .

وحينما أراد الله فتح مكة - دخل بلال مكة مع النبى يمتع عينيه بمشاهدها وطاف النبى بالبيت سبعا - ثم أمر بلالا أن ينطلق إلى عثمان ابن طلحة ليحضر المفتاح - ووقف على باب الكعبة - وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . وفتح الباب ودخل النبى وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة ، وأغلق الباب ، ووقف بلال خلفه وصلى النبى ركعتين . وجعل يطعن الأصنام بعود فى يده ويقول ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

وفتح باب الكعبة فاندفع الناس إليها ... ثم أمر النبى بلالا أن يؤذن . واستوى بلال على الكعبة - وانساب صوته عذبا وأطرق الجميع كأن على رءوسهم الطير - ومس صوته أوتار القلوب وارتسم الخشوع على وجه المسلمين .

وعاد النبى وصحبه إلى المدينة المنورة - وقضى معه بلال - وقتا سعيداً محافظا على دوام الأذان للصلاة .

وقضى حياته ملازما للرسول صلى الله عليه وسلم مقتدياً به فى زهادته

وتقواه ـ صادق الحب للرسول مجاهدا بنفسه فى سبيل نصرة دين الله .
ومن دلائل شدة حب بلال لرسول الله ما يلى :

مرض الرسول وحزن بلال :

مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وأذن بلال بالصلاة وانتظر الناس خروج الرسول ليؤمهم ، ومرت لحظات ولم يخرج ، فأحس الناس قلقا وأخذوا يتلفتون نحو الباب ، واتجه بلال إلى الباب وطرقه ، فأقبلت بريرة خادم النبى ـ فقال لها ـ أنبئى مولاك أن الناس تنتظره .

واتجهت بريرة إلى النبى فقالت له . قد دعا بلال إلى الصلاة ، وحاول النبى أن ينهض ولكنه ناء مغشيا عليه ـ وجزعت فاطمة ابنته وهرولت أم المؤمنين عائشة ـ وصاحت : أدركونى قد أغمى عليه ! ولما أفاق سأل أصلى الناس ؟ فقيل له لا ـ فقال : مروا أبابكر فليصل بالناس .

فأسرعت بريرة نحو الباب مطيعة بالأمر وأخبرت بلالا بما قال ـ فعاد بلال ورأى عمر ، فطلب منه أن يصلى بالناس حيث أنه لم تقع عيناه على أبى بكر .

فبلغ تكبيره آذان النبى وعرف صوته ـ فقال : يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون ، أين أبو بكر ؟ أين أبو بكر ؟ وعاتب عمر بلالا ـ واعتذر بأنه لم ير أبا بكر .

ثم أم أبو بكر المسلمين وابتدأت الصلاة ، وخرج النبى إلى المسجد معصوب الرأس ، فسرت فى الناس موجة من الفرح ، وتراجع أبو بكر ليخلى للنبى مكانه ، ولكن النبى دفعه بيده ليبقيه :

ثم جلس إلى يمينه وصلى قاعداً ، فكان أبو بكر يصلى بصلاة النبي وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر .

وعاد الرسول إلى بيته ، وارتفع صياح ! فأسرع العباس ، ودخل الدار ـ ومالبث أن خرج حزينا ، فجزع الناس وقالوا : ياعباس ماأدركت منه ؟ .

قال : أدركته وهو يقول (جلال ربى الرفيع قد بلغت) ثم قال : (واكرباه : لا إله إلا الله ـ إن للموت لسكرات ـ اللهم أعنى على سكرات الموت)

وأطرق الناس ، وبان عليهم الذهول ، وحدث بينهم هرج ، وما استطاعت عقولهم أن تصدق ذلك الخبر الفاجع .

ولما تيقنوا من أن رسول الله قد قضى ـ صاحوا جميعاً ، فارتجت المدينة وبكى الصحابة بكاء شديداً ، وحزن بلال حزنا شديداً ، وانهمر الدمع من عينيه ، ودخل ليلقى على النبى الحبيب نظرة وداع !

فألفاه مسجى على سريره فغص وترقرق الدمع فى عينيه وخرج مطأطيء الرأس حزين النفس .

خيم الحزن على يثرب ، ولم يستطع أحد أن ينام ليلته .

وخرج بلال مع تباشير الفجر ليؤذن ، واعتلى المسجد ـ وقد نال منه الحزن ، وراح يؤذن بصوت حزين ، وما إن بلغ (أشهد أن محمداً رسول الله) حتى خنقته العبرات ، وراح يغالب نفسه حتى أتم الأذان

ومرت الأيام ـ واشترك بلال فى الجهاد ـ وخرج إلى الشام ابتغاء مرضاة الله .

وهذا تم النصر واتجه أبو عبيدة إلى الجابية - صحب بلال معه - وجاء عمر بن الخطاب - فسار بلال إلى ركابه ، وحان وقت الصلاة ونهض بلال للأذان .

فأرهف الناس سمعهم ، وبكى الذين حضروا النبى صلى الله عليه وسلم - لذكراه الحبيبة وبكى عمر حتى بل لحيته ، وبكى الذين لم يروا النبى لبكاء إخوانهم .

ولما قضيت الصلاة — انطلق الركب صوب بيت المقدس لتسلم مفاتيحها ، ودخل بلال مع الداخلين ، وتذكر يوم أن قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله سيورثهم ملك الفرس والروم — فغمغم : صدقت يارسول الله — أين من كانوا يكذبونك ليروا جيوشك المظفرة تكتسح جيوش الفرس والروم ؟ — أين أنت يا رسول الله ؟ إنى لأحس بك بجوارى كما كنت يوم الفتح المبين .

وترقرق الدمع فى عينيه — وغمغم — عليك رحمـــة الله يا رسول الله .

بلال يرى النبى فى منامه — يدعوه لزيارته :

وبعد عدة أيام وفى مدينة عمواس — اتجه بلال إلى فراشه وأطبق جفنيه — فرأى فى منامه النبى الحبيب مقبلا نحوه وعليه ثياب بيض — فأسرع نحوه وسلم عليه وتحركت شفتا النبى فأرهف بلال سمعه — فقال النبى معاتبا — ماهذه الجفوة يا بلال — أما آن لك أن تزورنا ؟

فهب بلال من نومه — وصدى كلمات النبى يرن فى أذنيه .

ما هذه الجفوة يابلال ؟! ــ فاجتاحته موجة من الأسى . وغمغم ــ جفوة ؟! ــ لا يا رسول الله ــ فما غاب رسمك عن عينى وما نسيتك لحظة ـ أو قصر لسانى فى الصلاة عليك ـ لا يا رسول الله ـ أنها ليست بجفوة ــ سأشد الرحال من فورى وسأنطلق إلى مدينتك المفضلة لزيارتك .

واتجه بلال مسرعا إلى راحلته وامتطاها وكان يستحثها على الاسراع ليلحق بقافلة سبقته .

ودخل يثرب وقلبه يضطرب فى صدره .

وبان له قبر الرسول فازداد وجيب قلبه ، وازداد حنينه وأناخ راحلته ونزل عنها .

وتقدم فى خشوع ، ولما أصبح أمام القبر اضطرب وهتف بصوت تخنقه العبرات :

السلام عليك يا رسول الله .

وترقرق الدمع فى عينيه وسال على خديه وأطرق صامتا وراحت روحه تهيم فى سماء الذكريات .

وتصرم الوقت وما أحس بلال انقضاءه ـ فقد كانت روحه متصلة بروح النبى الحبيب .

واستمر فى إطرافه ولم يفق إلا على صوت يناديه ــ بلال . . بلال فرفع رأسه ، فرأى الحسن والحسين ــ فتجددت الأشجان وترقرق الدمع فى عينيه ، وراح يضمهما إلى صدره ــ ويردد (كلما رأيتكما ذكرت بكما رسول الله) ! .

وقضى بلال ليلته فى دار الحسن ، والتفت الحسين إليه — وقال : حرمتنا يا بلال صوتك، منذ قبض الرسول ونشتهى أن تؤذن فى السحر .

وانطلق إلى المسجد ، وعلا سطحه ، وقفزت الذكريات إلى رأسه وانطلق صوته مجلجلا ، وهب الناس مأخوذين بصوت بلال وأقبلوا إليه يعانقونه ، ثم قامت الصلاة .

وقضيت الصلاة وانتشر الناس فى الأرض .

وخرج بلال ليمتع ناظريه بالأرض الطيبة ، وكلما مر ببقعة تذكر ما حدث له فيها أيام النبى صلى الله عليه وسلم ووقف يودعها !

ثم ودع عمر — والدموع تنهمر من عينيه — وهو يسائل نفسه : ما بال دموعى اليوم غزيرة ؟ — لعل عتاب الرسول لى كان دعوة منه لزيارة يثرب ، وأهل يثرب قبل الرحيل الأخير .

وعاد بلال إلى الشام — وبعد أيام أصابه مرض ألزمه الفراش — ثم غمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

غدا نلقى الأحبة — محمداً وصحبه ! !

وهكذا كانت نهاية مؤذن الرسول بعد صحبته فى الحياة وفى الممات ومن حقه علينا أن نردد سيرته كلما أذن مؤذن وكبر مكبر أو هلل مهلل فلازلنا نستجيب لصيحة كان هو رائدها ، وننصت إليها فى الغدو والآصال فى الغداة وفى العشى — فكلما خلا عابد فى خلوته بنفسه يناجى ربه فى صلاته تذكر أول مؤذن للصلاة

وكلما عذب عابد لعبادته وتبتله وزهادته — تذكر هذا المعذب فى دين الله .

وكلما قست الحياة على مؤمن فحرمته الراحة وسلبته المتعة عاد

بذاكرته إلى سيرة من حرم لذة الدنيا فى سبيل الله ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾(١)

ولننتقل إلى الحديث عن معذب آخر ممن تعرضوا لعذاب سادتهم لأنهم قالوا (لا إله إلا الله) .

خباب بن الارت :

قمة فى التبتل، والاعتراف بالنعمة ، ومحاسبة النفس ، والخوف من الله والرجاء العظيم فى عفوه والتوسل إليه برحمته .

دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم — وهو يعذب — فقال :

(اللهم انصر خباباً) وقد نصره الله وأظهره على كل الذين كانوا يدعون أنهم سادته .

كان صاحب عقلية حرفية ملزمة بالبحث والتفكير والتأمل ، وبينما كان أحد القرشيين يشترى منه سيفا ، سمع حديثا هاما يدور بينه وبين صديق له — كانا يتحدثان عن محمد — والذين اتبعوه . وأنه يدعو إلى عبادة إله واحد .

ويقع الكلام فى نفس خباب . ويسعى خباب إلى لقاء محمد بن عبد الله صاحب الدعوة الجديدة وظل يستمع إلى النور يخرج من فم النبى — فيشع فى قلبه ، فتأثرت نفسه القلقة الحائرة الباحثة عن الهداية .

أهذا هو الشىء الكبير الذى يبحث عنه ؟ !

وفى أيام شعر خباب أنه يولد من جديد .

تطلع بلهفة إلى الأيام القادمة — بما تحمله من مرارة وقسوة ، فسوف يعذب لأنه ترك دين سادته .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة ق

ولكن مرحبا بما سيحدث . فقد أصبح له مايدافع عنه وما ينتمى إليه ، وما يتمنى أن يموت دونه ، إنه نور الله !

كانت فى نبراته ملامح أمن المؤمن وسكينته ، وهو يناقش سيدته ، فقد تقنت من انتمائه [illegible] جديد ، فأمرت بأن يوثق وكانت قاسية القلب متجهمة الوجه خشنة الصوت .

فلما جىء بين يديها مغلولا ، نزعت عنه إزاره ، وجاءت بالحديد المنصهر الذى كان يصنع منه السيوف ، وراحت تضعه على ظهره طولا وعرضا — حتى تملأ خياشيمها رائحة جلده المحترق فيغشى عليه فترفع حديدها .

فإذا عاد إلى وعيه — سألته أن يكفر بما أنزل على محمد — فلا يجيبها إلا بما تعلم من قرآن ، فتكرر نارها وحديدها ويمضى غائباً عن وعيه ، ويدرك يقيناً أنها لن تتركه حتى يموت ، ولكنه يتلقى منها ذلك سعيداً ، فهو يؤكد انتماءه ويصهر وجوده وينقى نفسه ، وترى هى منه ذلك ، فيشتد جنونها وتمضى فى وحشيتها .

وحينما خلص من رقه ، وأذن النبى بالهجرة ، هاجر إلى المدينة فرحاً بنجاته بدينه .

ويلزم مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحفظ القرآن ، ويدرسه ويتفقه فيه ، وشهد بعض الغزوات .

وقد لقى من أبى بكر وعمر كل تكريم ، حتى إن عمر رضى الله عنه كان إذا دخل عليه خباب فى مجلسه ، أفسح له مكاناً بجانبه ، ودعاه إليه .

فإذ لمح فى عينى من حوله تساؤلا ، صاح فيهم والله ليس هناك من أحق منه بهذا المكان إلا رجل واحد — هو بلال .

لقد شق طريقه فى دين الله بإيمانه العميق ، واجتهاده الخالص ، وواصل ليله بنهاره فى طاعة الله ولزم أحباب الله فأتم الله له ما أراد ، عاش فى نور النبوة ، وعبد الله ، كما رسم الله ، أخلص العبادة وقوى صلته بالله ، وتحمل الكثير فى سبيل مرضاة الله ، وهل هناك أشق من العذاب الذى لقيه فى حب الله ؟ !

فبالرغم من مرور عشرات السنين عليه ، كان ظهره يحمل وثائق تعذيبه فى سبيل الله .

ويقترب يوم لقائه من الله ، ويذهب لزيارته بعض قدامى الصحابة فيقولون له : أبشر أبا عبد الله — إخوانك الذين سبقوك من الصحابة سوف تلقاهم غداً .

ويسمع منهم ذلك فيبكى حتى تملأ دموعه تجاعيد وجهه — ويقول : ليس بى جزع ولكن ذكرتمونى أقواما وسميتموهم لى إخوانا ، وأولئك مضوا بأجورهم كما هى — وإنى أخاف أن يكون ثواب أعمالنا المشتركة ما أوتينا بعدهم .

فهل هناك محاسبة للنفس أروع من هذه المحاسبة ؟ !

٥ — أبو الدرداء الصحابى الجليل :

اقتبس من أنوار النبى وسار على نهجه فى الإخلاص لله ، وكان حريصا على التصوف والزهد كل الحرص .

فقد روى أنه لما آخى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين أبى الدرداء وبين سلمان الفارسى — توجه سلمان لزيارة أخيه فقدم له طعاماً ودعاه إلى أكله وحده قائلا إنى صائم ، فرفض سلمان أن يأكل إلا إذا أكل معه .

ولما قام أبو الدرداء للصلاة ليلا كعادته ، طلب منه سلمان أن ينام حتى إذا ما قرب الفجر قاما وصليا معاً - ثم قال له — إن لنفسك عليك حقاً ولربك عليك حقاً ، ولضيفك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذى حق حقه .

وتجادلا فى ذلك ، وذهبا إلى رسول الله — وذكرا له ما كان فوقف الرسول إلى جانب سلمان ، وقال لأبى الدرداء : صدق سلمان .

هكذا كان أبو الدرداء فى بيته ، حريصا على الصوم نهاره — وعلى الصلاة طول ليله ، ولم يكتف بأداء الفرائض يومه ، فكان يصل ليله بنهاره فى العبادة ، طمعا فى مرضاة الله ، ولولا ملاحظة أخيه سلمان وأمره له بالرفق بنفسه ، لما انقطع لحظة عن عبادة ربه - صلاة وصوما .

فكان متعبداً مجاهداً ، شهد بزوغ شمس الإسلام ، وكان من السابقين إليه ، المستظلين بنوره ، المهتدين بهداه ، وصحب الرواد الأوائل الذين خرجوا مبشرين بدين الله الحق ، ونشأ [illegible] (هجيمة) على ما شاهدت الشيخ عليه ، من صلاح وتقوى وتعبد إقبال على طلب العلم ، وعمل دائب على إفادة الناس به .

الباب الرابع

من رواد التصوف

ومن المتصوفين المعاصرين الذين اتخذهم المتصوفون روادا لهم ينهجون نهجهم ويتأثرون بهم :

(أ) ذو النون المصرى (ب) مالك بن دينار

(ا) ذو النون المصرى :

هو ثوبان بن إبراهيم الزاهد المشهور الذى رسم طريق التصوف لمريديه وقد مزج علم الطريق بغيره من العلوم الدينية ، وله فى الحب الإلهى آراء تدور حول شيء واحد هو ذاتية المحبوب .

ومن كلماته المأثورة (إذا أنس العبد بخلقه أوحشه من نفسه ـ وإذا أوحشه من خلقه آنسه بنفسه) .

ويحلل الأنس بالله فيذكر ثلاثة من أعماله : استلذاذ الخلوة ، والاستيحاش من الصحبة ، واستجلاء الوحدة .

ويصور الشوق إلى الله ويذكر أن مقوماته : حب الموت مع الراحة ، وبغض الحياة مع الدعة ، ودوام الحزن مع الكفاية .

ويصور الخوف بعلامات ثلاث : الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد ، وحفظ اللسان مراقبة للتعظيم ، ودواء الكمد إشفاقا من غضب الحليم .

ويقول عن الاستغناء بالله : إنه التواضع للفقراء المتذللين ،

والتعظم على الأغنياء المتكبرين ، وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين .

وفى أعلام التقوى : ترك الشهوة المذمومة مع الاستمكان منها ، والوفاء بالصالحات مع نفور النفس عنها ، ورد الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها .

وأصول الحب فى الله فى نظره : بذل الشىء لصفاء الود ، وتعطيل الارادة لأرادة الله ، والسخاء بالنفس ، والمشاركة فى محبوبه ومكروهه بصفة العقد .

والحب فى نظره يقوم على دعائم يجب توافرها ليتم وجود هذه المحبة وتكتمل معانيها ، ولا يتوفر هذا إلا عن طريق أحوال ومقامات هى الأساس الفعلى الأول للحياة الروحية ، مثل المحبة واليقين ، والثقة بالله ، والرضا ، والأنس والشوق والخوف . . إلخ .

وقد يكون هناك من المشاعر ما هو أكثر من هذا مما يحس به الواصلون ، ولا يستطيعون التعبير عنه ، أو يرى بعضهم عدم البوح به معتبرا إياه سرا واجب الكتمان ، بينه وبين مانح الفيوض ومعطى الكرامات .

إن الحب الإلهى إحساس جارف وشعور غالب من العسير أن يعبر المحب عنه أو أن يحدده ، ولكن يحدث أن تنتابه درجات من الإحساس يحلو له أن يحددها ويعمقها ليتخذها وسيلة فى زيادة القرب ، فيبوح بها ويتحدث عنها إلى أخوانه فى الحب ليرى هل سبقهم أم مايزال قبلهم أو دونهم فى ذلك المضمار .

إن أهل الحب لا تعرف نفوسهم الاستقرار — فاللهفة من مميزات

المحب — فمن عشق الذات العظمى لا يهدأ أبدا — فنفسه مستهامة قلقة ، وتطلعه إلى نور الله مستمرة ، ودموعه لا تجف خشية ورهبة ، يهرع إلى الصلاة باعتبارها أدق صلة بين العبد وخالقه ، ويتوجه بالتوبة إلى مولاه — ومع ذلك فهو قلق لا يدرى إن كانت توبته قد ارتفعت إلى عليين وقبلت — أم أن الأبواب قد أغلقت دونها ؟ ! .

والعبادة فى ذاتها إن لم يكن الحب الخالص للمعبود أساسها . كانت مجرد تظاهر ورياء ونفاق — لأنها قد خرجت من نقاء الوحدانية والتفرد إلى شوائب التعدد وانشغال النفس بأكثر من خاطرة وأكثر من رجاء .

ولما كان أهل الذكر يسعون إلى هدف واحد هو أنه ﴿ بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ فقد كان من الطبيعى أن ينحصر نشاطهم فى ترديد الاسم الأعظم فى جلسات دورية ، ترديداً فيه الضراعة والخلوص ، وفيه الرغبة فى الاستفادة من الاسم نفسه وما يعنيه .

هكذا شأن المتصوفة ، يقضون أوقاتهم فى ذكر الله فرادى أو جماعات ، يقفون أمام جلال الاسم الأعظم خاشعين — فالقلوب الراغبة فى الوصول خاشعة مشغولة به ، وصفاته المنزهة عن الحوادث تملؤها بالحب ، والحب هو أسمى درجات العرفان للذات العلية .

وإذا كان الإخلاص رائد المحب ، فلابد أن يصل إلى الله الحق .

(ب) مالك بن دينار :

من أعلام الصوفية الواصلين — تفرد فى زهده وإخباته وتبتله وانقطاعه لمولاه .

كانت حكمته غذاء القلوب ، وسلوكه ضياء النفوس ، ومنهاجه

اقتفاء الأثر المحمدى المنير، وترك وراءه أثرا يسلكه من سار على دربه، ليهب عمره لله كما فعل .

عاش فى القرنين الأولين ، قريب عهد باشراق شمس النبوة والرسالة صلى الله عليه وسلم ، واستمد من نوره المدد المحمدى — فتمثلت فيه القولة المأثورة (إذا رأيت من رأى فقد رأيت) .

وقد روى أن سبب تصوفه ، رؤيا رآها عقب وفاة ابنته الطفلة ،فقد رأى تنيناً هائجا يهجم عليه . واستغاث بشيخ فلم يستطع حمايته لضعفه ثم لجأ إلى جبل يحتمى به، فإذا بأطفال أقبلوا نحوه وبينهم ابنته ، فنظرت إليه وبكت ، ثم مدت يدها إلى التنين فولى هاربا — ثم أجلسته — وقالت : يا أبت ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾(١).

فبكى - وقال : وأنتم تعرفون القرآن ؟ قالت نحن أعرف به منكم - قال فأخبرينى عن التنين الذى أراد أن يهلكنى - قالت : ذلك عملك السيء ، قال : فالشيخ ؟ قالت عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السيء .

ثم قال يابنية - ماتفعلون فى هذا الجبل ؟ قالت : يسكن فيه أطفال المسلمين إلى قيام الساعة ينتظرون آباءهم يقدمون عليهم فيشفعون لهم .

قال مالك : فانتبهت فزعا مرعوبا ، وعقدت مع الله عز وجل توبة نصوحا .

وعمر قلبه بالإيمان وهيء لاشراق نور التقوى .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد

وماكانت هذه الرؤيا التى رآها ، إلا إيذانا بالولاية لله والفرار إلى الله وتخليه القلب لله .

وذاق حلاوة العبودية لله ، وتألم على مامضى من العمر سدى ، وعرف أن الجهاد الروحى طريقه طويل ، لاينتهى حتى تصفو النفس من أدرانها وشوائبها .

ولما كان حب الدنيا هو السم الزعاف ، الذى يطفىء نورانية الروح فقد غالب نفسه بالزهد فى الدنيا ، وبلغ فى ذلك شأواً لايدرك .

وروى عنه أنه قال (من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذى لايفرق الشيطان من ظله) .

وكان يقوم فى محرابه ويقول : يارب ـ قد عرفت ساكن الجنة وساكن النار ففى أى الدارين مالك ؟ [ثم يبكى !!

لقد كان نداء العبودية لله يدوى فى أعماق مالك بـكل حرارة ـ وكانت عبادته فى جوف الليل سرا بينه وبين مولاه ، يناجيه بقلبه ومشاعره ويسر إليه بحديثه ونجواه .

إنه فى مقام الخوف يناجى ربه من شدة خشيته مشفقا على نفسه ، ولقد سمعه بعض أصحابه يوما وهو يقول : (لو استطعت أن لاأنام ـ لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم ـ ولو وجدت أعوانا لفرقتهم ينادون فى سائر الدنيا كلها يأيها الناس ـ النار النار ..) .

وفى كل من مقام الخوف ومقام الرجاء ، كان لايفتر عن ذكر الله ، وكان يطرب لسماع القرآن الكريم ـ ويقول لأصحابه (إن الصديقين

إذا قرىء عليهم القرآن ـ طربت قلوبهم إلى الآخرة ـ ثم يقول : خذوا ـ فيقرأ ـ ويقول : اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه) .

ولقد كان الذكر عنده مقياسا لمحبة الله عز وجل ـ فهو يقول : علامة محبة الله مداومة ذكره ـ لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره .

ويقول : (خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها — قالوا وما هو ياأبا يحيي ؟ قال : معرفة الله تعالى) .

وقد كان ممن ذاق حلاوة الأنس بالله ـ فاستوحش من المخلوقين لأنه مع الخالق دائما ـ فهو يقول : (من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوق فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره) .

وهكذا تنزل النفحات الإلهية على قلوب العارفين ، لتضيء ساحاتها بالأنوار الإلهية ، وتجذبها إلى حضرة المولى عز وجل فلا يشهد العارف غير الحق تبارك وتعالى .

ولم تكن الزهادة والتصوف والتقوى والورع — قاصرة على الرجال فقط — بل شاركتهم فيها النساء .

فزوجات النبي كن خير قدوة لغيرهن من نساء المؤمنين . وقد قال الرسول عن عائشة : (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء) وقد تأثرت بهن نسوة فضليات كثيرات — نكتفي بذكر اثنتين منهن — هما : أم الدرداء الصغرى — ورابعة العدوية .

* * *

(أ) أم الدرداء الصغرى ـ الزاهدة المعلمة :

نهلت من نفس النبــع الروحي الطاهر الفياض ـ من أبي الدرداء وسارت على منواله ونهجه ، تحرص على صلاة الجماعة فى المسجد وهى فى عباءة أبى الدرداء .

وأمرها أبو الدرداء أن تلحق بصفوف النساء فى المسجد ،واعتـكفت حيث أراد لها أن تعتـكف ، وأقبلت فى شغف على دراسة الحديث ـ فأبو الدرداء كان من رواة الحديث بحكم الصحبة للرسول .

وظلت تنهل من موارد العلم حتى وصلت إلى مرتبة العلماء العاملين وعظم أمرها وأصبحت حجة ، وروى لها (مسلم وأبو داود ، والترمذى وابن ماجه) ، ولم تـكن تعرف من أمور الدنيا غير أنها معبر يوصل إلى الآخرة بالعمل الصالح ومرضاة الله .

عرفت أن الدنيا لمن يطلب الدنيا ، وأن الآخرة لمن يطلب الآخرة وهيهات أن يجتمع الطالبان على طريق واحد ، ومن هنا بدأت تختط لنفسها طريقا فى الزهد الايجابى .

راحت تبشر به وتدعو إليــه منادية بتحصين النفوس وترويضها على الطاعة .

واستطاعت بزهدها وعفتها وآرائها فى التعبد والزهد ، أن تختط طريقا فى الوصول إلى الـكمال ، هو المدخل إلى التصوف .

فـكانت بهذا أول من مهـد الطريق للعابدات القانتات الزاهدات المتصوفات ، اللاتى جانبن الدنيا وحلو مباهجها ، وأقبلت كل منهن بخالص قلبها على العبادة بأسلوبها الخاص الذى شقته بدموع النــــدم وآهات التوبة ، وزفرات الاستغفار لتنال مرضاة الله .

خرجت على شرعة العزلة التى طالما تمسك بها الزاهدون والنساك ، ورأت أن مخالطة الناس هى التوجيه الحق ، وهى الارشاد إلى الحسنى وإلى طريق الخير ، وتوجه الناس إلى خير السبل ، فصلاح أمور الدنيا فى نظرها ـ كان يوجب صلاح أمور الدين واتباعه فى كل ما يأمر به.

وقد عرف خلفاء بنى أمية فضلها وعظيم تأثيرها على نفوس المريدين فوقروها ، وكان أظهرهم فى ذلك عبد الملك بن مروان ـ الذى كان من عادته أن يواظب على حضور حلقاتها الدينية ، وكان يجلس فى مؤخرة المسجد إمعانا منه فى التواضع .

لقد كانت عابدة عرفت كيف تصل ، وكيف تعرف طريق الوصول ولم تغلق على غيرها باب المعرفة الذى وصلت إليه ، بل حرصت على أن تدعو الناس إلى دخوله لتستنير قلوبهم بحب الله .

وإذا أفاضت تملكت السامعين ونسيت مرور الزمن .

وقال أحد الجالسين معها — لعلنا قد بعثنا إليك الملل — فنظرت إليه ، وقالت : — لا والله — لقد طلبت العبادة فى كل شىء فما وجدت أشفى لصدرى ولا أحرى أن أصيب به الذى أريد من مجالس ذكر الله ، وإنى لأقول لكم إن أفضل العلم هو المعرفة ـ فتعلموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً .

هكذا كانت تدعو أم الدرداء إلى الخير ، دعوة صادقة مؤمنة لم تكن تتمنى أكثر من أن تجد مواقعها فى النفوس .

وكانت تعتبر ذكر الله الوسيلة لكل خير ، وأنها فى هذا لتقول لمريديها : (ولذكر الله أكبر) ـ فإن صليت فهو من ذكر الله ، وأفضل ذلك تسبيح الله .

وكانت صوامة قوامة — وكانت بعض الصالحات القانتات من نساء عصرها يجتمعن بها وتطيب لهن جلساتها التعبدية — وقد اعتادت أن تؤمهن فى الصلاة ، وكانت على العهد بها كثيرة القيام لصلاة الليل، حتى أن صاحباتها كان يعتورهن الضعف فلا يستطعن مجاراتها فى الصلاة ، وكانت تعظ وتوجه وتقوم النفوس وتطهرها .

وقد حدث ذات ليلة أن سمعت عبد الملك بن مروان — ينادى، أحد خدمه — فأبطأ الخادم فلعنه ، فغضبت الزاهدة المعلمة - وقالت : سمعت أبا الدرداء يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللعانون لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة » .

هكذا عاشت أم الدرداء الصغرى — راوية حديث صحيح وموجهة نصح وعابدة وزاهدة .

كان لها فى الزهد والتعبد — طريق فريد حتى لحقت بربها راضية مرضية .

(ب) رابعة العدوية - شهيدة العشق الالهى :

هذه العاشقة التى أفنت فى بحور الوجد ذاتها الفانية ، تنشد خلود روحها الأبدى — شغلت الناس جميعاً — وصارت مضرب المثل فى التعلق بالمولى المحبوب ، ونموذجا رائعاً لحياة الحب الإلهى ، حتى حار الكثير فى فهم دقائق حياتها الشخصية من جميع جوانبها .

وحرىّ بهذه الزاهدة المتصوفه ، أن تجد من يشغل بسيرتها ويدرس حياتها .

فقد أحبت الله ، وفتحت أمام المحبين أبواب المعرفة ، وعلمتهم ماهية الحب وسر الفناء .

ورابعة فى تعبدها — قد أنشأت لها طريقا إلى المعرفة — اتبعت الحق وفنيت فيه ، فصارت على رأس طائفة صار لهم فى الزهد والتعبد مذهب فريد .

وبرغم خلوصها وتهجدها وسهرها الطويل فى المناجاة ، لا تدرى إن كانت مقبولة أم مردودة .

وقد حكى عنها أنها كانت إذا صلت العشاء ، قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها — ثم قالت : (إلهى ، أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك) — ثم تقبل على صلاتها .

فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر . قالت : (إلهى ، هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى ! أقبلتَ منى ليلتى فأهنأ ؟ أم رددتها علىّ فأعزى ؟ !

فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك) .

فرابعة كانت تحب الله — حب التعظيم والإجلال — وكانت تقول : إنى لا أستحق هذا الحب ، ولا استأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان — لأن حبى لك لا يوجب لى جزاء عليه ، بل يوجب على كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدا — إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ، ووجب على الحياء من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت له من

حبك إذ ليس كمثلك شيء. فتفضلت على بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك — فأريتني وجهك عندك آخراً .

إن أكثر العباد لا يرجون من وراء عبادتهم إلا راحة الآخرة ولكن رابعة أحبت الله لا خوفاً من ناره ولا طمعا فى جنته ، حتى لا تكون كالأجير السوء ، بل عبدت الله حباً فيه وشوقاً إليه ، قضت عمرها تذكر الموت باعتباره الجسر الموصل إلى الآخرة — فى انطلاق الروح نحو الملكوت الأعلى، لتكون قريبة من الله فى أفق نورانية العرش. وكانت تقول : (ما أسوأ العبد الذى يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار — فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار — أفلا نعبد الله تعالى ؟) .

فسألوها — وأنت لماذا تعبدين الله ؟ .

فأجابت : أعبده لذاته — أفلا يكفينى نعمة منه أنه يأمرنى بعبادته ؟

وقد سئلت عن محبة الله — فقالت :

(ليست للمحب وحبيبه بين — إنما هو نطق عن شوق — ووصف عن ذوق — فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف ، وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده ذائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ، فالهيبة تخرس اللسان عن الأخبار ، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار ، والحيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الاقرار ، فما ثم إلا دهشة دائمة وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة ، وأجساد من السقم غير سالمة ، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة) .

كانت أمينة فى حبها ، فراحت فى دنيا الوجد تبحث وتنقب، لتعرف الطريق إلى النبع الصافى والسلسبيل الحلو ، فتقبل عليه إقبال الظامئة المشوقة إلى كشف الغوامض ، وكانت كلما ضلت فى عوالم الأسرار أنصتت بكليتها وأصغت إلى وجيب قلبها ، فكان له فى خيالها صدى قدسى ، يجعلها تحس ذهول الحب وجلال اللقيا وترقى بإحساسها إلى مدارج القرب والقبول .

فغابت عن عالم الحس ولم يداخل قلبها زهو أو كبرياء ، وتوسلت للحبيب أن يثبت أقدامها بين حشود الفقراء إلى ذاته .

وقد روى بعض أهل السير فى بعض المخطوطات هذه الرواية :

دخل لص على رابعة ليلا ـ فنظر فى البيت فلم يجد غير إبريق ، فلما هم بالخروج ـ قالت له رابعة ـ ياهذا ـ لاتخرج بغير شىء ـ فقال : إنى لم أجد شيئاً ـ فقالت : يامسكين ـ توضأ من هذا الابريق ـ وادخل فى هذا المخدع ـ وصل ركعتين ـ فإنك ماتخرج إلا بشىء .

ففعل ماأمرته به ـ فلما قام يصلى ـ رفعت رابعة طرفها إلى السماء ـ وقالت : سيدى ومولاى ـ هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى ، وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

فلما فرغ اللص من صلاة ركعتين ـ لذت له العبادة ـ فما برح يصلى إلى آخر الليل ـ فلما كان وقت السحر ـ دخلت عليه رابعة ـ فوجدته ساجدا ـ وهو يقول فى سجوده معاتبا نفسه :

إذا ماقـــال لى ربى أما استحييت ؟ تعصينى ؟
وتخفى الذنب عن خلقى وبالعصيـــان تأتينى

فمـــا قولى له لمـــا يعاتبنى ويقصينى ؟!

فقالت له رابعة : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : بخير ـ وقفت بين يدى مولاى بذلّ وافتقارى ـ فقبل عذرى ، وجبر كسرى وغفر لى ذنبى !

ثم خرج هائما على وجهه .

فرفعت رابعة كفها إلى السماء ـ وقالت : سيدى ومولاى ـ هذا وقف ببابك ساعة فقبلته ، وأنا مذ عرفتك بين يديك ـ أتراك قبلتنى ؟

فألهمت (يارابعة من أجلك قبلناه وبسببك قربناه) .

ولقد قالت لأحد سائليها :

ليس من المستطاع أن تميز بالنظر المقامات المختلفة فى الطريق إلى الله ولا أن تصل إليه باللسان ، فلتجعل قلبك مستيقظا ، فاذا استيقظ رأيت بعيونه الطريق ـ وكان فى وسعك بلوغ المقام .

لقد فتحت الطريق لمن بعدها ـ ممن يريد محبة الله، وعبدت رباها بندم والدموع والاستغفار .

كانت تائبة قانتة ، منقطعة لله وحده ، وكانت صادقة وهى تعبر عن الوجد الربانى العظيم .

ومن خلال حبات الدمع الشفافة ـ راحت المتعبدة فى ظلمة الليل البهيم ـ ترقب الكون الخاشع — وقد خيل إليها — أنهـــا بدأت تكشف خفاياه .

لقد شارفت الحقيقة وإنها لترقى على سلمها السرمـــدى إلى مرتبة الكمال .

وقد كانت تسائل نفسها (هل أوزار الماضى من الثقل ، بحيث لاتستطيع الزفرات المؤمنة الصادرة من القلب العامر بحب الله ، النادم على مافات ، أن تذيبها وتذهبها بددا ، كما تذهب أشعة الشمس الساطعة غيوم الضباب) ؟ .

وكانت تصلى الليل كله ، فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فتثب من مرقدها فزعة تقول : يانفس كم تنامين وإلى كم تقومين ؟ يوشك أن تنامى نومة لاتقومين منها إلا لصرخة يوم النشور !!

فهى بذلك كانت تتبع صفة المختارين من عباد الله ، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ وقوله ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ـ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ﴾ (١).

فلم تكف أبدا عن الصلاة وإطالة السجود والاستغفار ـ وهكذا شأن المحبين لله لا يغفلون عن عبادته لحظة ، ولا ينصرفون عن طاعته برهة وقد روى أحمد بن الحوارى الواقعة التالية ـ قال : دخلت على أبى سليمان الدارانى وهو يبكى ـ فقلت : مايبكيك ؟ قال ياأحمد ـ ولم لا أبكى ؟ وإذا جن الليل ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم وتقطرت فى محاريبهم ، أشرف الجليل سبحانه وتعالى ، فنادى « ياجبريل ـ بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى ـ وإنى لمطلع عليهم فى خلوتهم ، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم . ألا فلتناد فيهم ياجبريل : ماهذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل

---

(١) الآيتان ٦٤ ـــ ٦٥ من سورة الفرقان .

بى أن أؤاخذ قوما إذا جنهم الليل تعلقوا بى ؟ فبى حلفت — لئن وردوا على يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهى حتى ينظروا إلى وأنظر إليهم».

وحب رابعة حب فريد فى صفاته فهى تحب الله، وتفنى فى حبه فالذين يعبدون الله على اختلاف مللهم، يعبدونه وكلهم طامع فى عفوه وبره وجزيل عطاياه — التى وعدهم بها فى كتبه وعلى لسان رسله.

وإن أكثر العابدين ليتوجهون إلى الله فى ضراعاتهم وصلواتهم يسألونه العفو والرضا، والتفضل عليهم بالخلد فى جنته. بل إن أكثر العباد عكفوا على عبادته، ليفعل ذلك وهولا يرجو من وراء تعبده إلا الراحة الآخرة وأن يقيه الله عذاب النار

هذه نماذج طيبة للعابدين الزاهدين، والذين يطلق عليهم (المتصوفون) وقد كثر عددهم وتوالت أخبارهم، وزاد أتباعهم الذين يسيرون على نهجهم ويحتفلون بذكراهم فى كل مناسبة.

ولا ينقص من قدرهم ما يفعله البسطاء من العوام، من تصرفات لا يرضى عنها الدين، وأساءت إلى الرواد الأوائل من أهل العلم والصوف مما دفع الغيورين على الدين، إلى شن الحملات على الانحراف والمنحرفين.

وقد نشرت الصحف آراء عديدة حول التصوف والمتصوفين نذكرها للوقوف على مافيها من توجيه، حتى يصل الحيارى إلى وجه الحقيقة (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) (١).

---

(١) الآيه ١٧ من سوره الرعد.

الباب الخامس

آراء حول التصوف والمتصوفين

فى نطاق حملة صفحة الفكر الدينى بصحيفة الأهرام ، على البدع

— يشترك الشيخ سيد سابق مدير الدعوة بوزارة الأوقاف — فيقول :
إن الإسلام دين العقل والعلم ولا يمكن أن يتعارض معهما ، وأن الخرافات المنتشرة الآن ، تجد من يدافعون عنها ممن يتكسبون ويتاجرون بها مستغلين العاطفة الدينيه للبسطاء وانتشار الأمية ، وتقصير المؤسسات الدينيه وأجهزة الدعوة .

وقال : إننا نحتاج إلى حملة واسعة تقودها الأجهزة المسئولة عن تقديم الإسلام للناس فى صورته الصحيحة .

فالاعتقاد بأن فى إمكان شخص معرفة المستقبل ، عن طريق الولايه أوغيرها ، تجعل الإنسان أسيراً فى حياته لشئون ليس للعقل فيها نصيب ، ومن يقول إنه يستطيع الغيب بأى طريقة ، فهو يقول بأنه شريك لله فى واحدة من خصوصياته .

ولماذا يتحدثون عن كرامات الأولياء بعد موتهم ، ولا نسمع عن كرامات سيدنا أبى بكر أو عمر أو غيرهما من الصحابة الأعلام .

وبعض الكتب تذكر عن سيدى أحمد الدردير — أنه يركب الحمارة ويقضى العبارة — تقصد أنه قادر على قضاء حاجات الناس .

فهل يقول عاقل : أن سيدى الدردير سيجد فى الآخرة حمارة ؟ ! .

وهل توجد فى الآخرة حمير ؟ وهل حدث فى الإسلام — فى صدره الأول — أن تحدثوا عن كرامات واحد من الصحابة بعد موته ؟

وفروع لطريقة السادة الكناسية الأحمديه ، تعطى وثيقة لشيوخها ليكون كل منهم بها خليفة ، وهى تسمح له بأن يأخذ العهود ويقيم الحضرات ويجعل له نقباء ومنشدين .

وفى آخر هذه الوثيقة ما يلى : —

ما نقل عن شيخ الإسلام الإمام ابن حجر فى طبقاته . قال : إن سيدنا أحمد البدوى ، تكلم فى صغره ثمانى كلمات — الأولى — . قال : ملكت الريح وأنا ابن سنة ، — والثانية — . قال : ملكت من يملك الريح وهو الجن والطيارة وأنا ابن سنتين ، — والثالثة — . قال : مكثت بوضوء واحد سنة كاملة ، — والرابعة — . قال : بينما أنا جالس وإذا بتفاحة وقعت فى حجرى فتوقفت عن أكلها — وإذا بالنداء — كلها يا أحمد فإنها هديتنا إليك من الجنة . قال : فأردت أكلها بتمامها وإذا بالنداء ثانية : كل النصف ودع النصف — فإنك إذا أكلتها بتمامها لم يبق قطبانية لأحد من بعدك — فلك نصف القطبانية حياً وميتاً . — والخامسة — : نقلت مريدى من الشقاوة إلى السعادة ، ومن النار إلى الجنة وأنا ابن خمس سنين . — والسادسة — : قال : لاح لى من سعة الله تعالى قدر ثقب الإبرة فحركت ما سكن وسكنت ما تحرك بإذن الله تعالى ، — والسابعة — : قال : جعلت الدنيا فى يدى كالكرة أو الدينار أو الدرهم ، أقلبها كيف أشاء بإذن الله تعالى ، — والثامنة — : قال : كنت أنا والشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى المحبة سواء .

ولم يتكلم بعد ذلك رضى الله تبارك وتعالى عنه .

* * *

وناقش هذه الآراء الأستاذ خالد محمد خالد ، فقال : —

من خلال تتبعى للحملة التى تقوم بها صفحة الفكر الدينى - رأيت واجبا على وحتما أن أتوجه إليكم بنصيحة- فحواها : أنه لابد من الاحترام الكامل للتخوم الفاصلة ، بين حق الناس ، فى أن يعبروا عن آرائهم .

وحق التصوف فى أن تبقى له حرمته وكرامته .

وحق أولياء الله أن يبقى لهم من التوقير والإجلال ما دعانا الله إليه وما دعانا إليه رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد دعتنى الآراء التى طالعتها جميعها، إلى ضرورة تبيان منهج يساعد جميع الباحثين فى هذا الموضوع على رؤية الحق والصواب .

وهذا المنهج يتلخص عندى فى ثلاثة نقاط :

أولا : بحث القضية كلها من خلال إيماننا المطلق بالغيب .

فالإسلام شأنه شأن جميع الأديان يمتاز عن العلم وعن الفلسفة مثلا باعتماده الكامل على الإيمان بالغيب ، ومن أجل هذا كانت أول آية فى القرآن الكريم ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين - الذين يؤمنون بالغيب ﴾(١).

والذى لا يؤمن بالغيب فيجد نفسه - شاء أو أبى - كافراً بالدين كله ، ولن يصلح العقل ولا العلم بديلا عن الإيمان بالغيب ، فقضية البعث بعد الموت مثلا ، ووجود الملائكة ، والحوار الذى ساقه القرآن بين الله سبحانه وتعالى وبين الشيطان حين رفض أن يسجد لآدم ، وقصة إبراهيم حين أمره الله أن يذبح أربعة من الطير ويمزقها مزقا ، ثم ينثرها على قمم الجبال

---

(١) الآيتان ٢ — ٣ من سورة البقرة

وذراها ، ثم يدعوها ثانية فإذا بها تعود إليه حية تسعى .

وعرش بلقيس الذى جاء به رجل مؤمن فى مثل لمح البصر .

وأهل الكهف الذين أنامهم الله ﴿ ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ ، ثم أيقظهم وأعادهم إلى الحياة ليكونوا آية على بعث الموتى يوم القيامة .

كل هذه الخوارق التى ساقها القرآن الكريم - هل يمنحنا العقل أو العلم - الإيمان بها ؟ لا .

إنما يمنحنا الإيمان بها - الإيمان بالغيب وحده - هذا الإيمان الذى يجعله الإسلام قاعدة التفكير والاعتقاد .

وبحث قضايا الدين عامة بما فيها التصوف طبعا ، من خلال هذا الإيمان - يبلغ بنا مطالع الضوء ويهدينا إلى الحقيقة فى صدق وسلام .

ثانياً : التصوف الحق هو أعلى مراحل التدين الحق — هو جوهر الدين ، لأنه يعنى التجرد الخالص لله رب العالمين - يعنى وصل العمل كله بالضمير - ووصل الضمير كله بالله .

وأهله الحقيقيون هم الذين يخشون ربهم بالغيب ، والذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، والذين نذروا أنفسهم ، كل أنفسهم — لاضاءة الإنسان وإضاءة الحياة بنور الله .

والذين كانت تجربتهم الروحية والسلوكية وستظل تحمل من الرؤى ما ليس للروح الانسانى غنى عنه ، وتحمل من الثراء العلوى ما لا يبدد فاقة النفس سواه .

والرسول عليه الصلاة والسلام هبط عليه الوحى ، وهو فى ذروة تصوفه — فمنذ بلغ رشده إلى أن جاءه الوحى فى سن الأربعين وهو يعيش فى نسك دائم بين غار حراء وبين بيته ، وفى حياته العامة والخاصة يبحث عن الحقيقة الدينية فى أعلى وأكرم مستوياتها حتى جاءه اليقين من ربه وقام يبلغ رسالته .

والتصوف الحق ليس إفلاسا ولا تهريجا ولا بطالة — إنما هو اليقين المضىء، الذى يرتفع بالروح الإنسانى إلى أعلى مستويات كماله فى جهاد النفس وفى مقاومة الشر ، وفى عمارة الحياة الدنيا والآخرة .

ثالثاً : أولياء الله هم خيار خلقه ، كما وصفهم القرآن العظيم ، وكما حياهم الرسول الكريم — وكراماتهم حقيقية واضحة كضوء النهار ﴿ لهم مايشاءون عند ربهم ﴾ ، وفى الحديث (لو أقسم أحدهم على الله لأبره) .

وهم غير ولوعين بإظهار الكرامات — بل يظهرونها حين يفعلون لتثبيت إيمان الناس — كما كانت المعجزات كذلك .

وهم لا يفتأون يهتفون بأن (الاستقامة هى خير كرامة) .

وحين تطالع معاناتهم الباهرة والشاقة فى سبيل تكوين أنفسهم وإرضاء ربهم نرى مايفوق طاقة البشر .

وإلى جوار إقبالهم العظيم على عبادة الله والسمو بالنفس — لم يكونوا يهربون من مسئوليات الحياة — فهذا مثلا ولى الله الصالح الإمام أحمد الدردير — الذى جاء ذكره فى حديث فضيلة الشيخ سيد سابق — لم تشغله العبادة ولا تعليم الناس عن السعى فى قضاء حوائجهم وتفريج كربهم ودفع الأذى والظلم عنهم — عملا بقول الرسول صلى الله عليه

وسلم : « من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لأن أمشى فى حاجة أخ لى حتى تقضى أحب إلى من أن اعتكف فى مسجدى هذا شهرا » .

أقول كان الإمام الدرديرى رضى الله عنه ، مفزع ذوى الحاجات والكربات، يذهب أحدهم إليه فلا يتوانى ، بل يركب دابته ويصحب الرجل إلى الوالى إذا كانت حاجته عنده، أو إلى غيره — فلا يكاد يفتح فمه بحاجة ذلك المحتاج حتى تقضى بسبب ما أودعه الله له فى قلوب عباده من محبة ومهابة .

ومن أجل ذلك كان المثل الشعبى الذى أطلقه الناس فى حياته من أنه « يركب الحمارة ويقضى العبارة » .

أما بعد موته رضى الله عنه — أو على الأقل — فى عصرنا هذا فلا أظن أحدا يتوسل بهذه الكلمات .

وفى مبادئهم التى يبشرون بها يأخذون من نور الرسول مباشرة ، انظر إليهم وهم يقولون : « من زاد عليك فى الأخلاق زاد عليك فى التصوف » — أو حين يقولون : « لا تصاحب إلا من ينهض بك حاله ويدلك على الله مقاله » .

وحين يقولون : « إذا قلت يارب أين الطريق إليك — جاءك النداء : خل نفسك وتعال » . والذين يقولون : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا » .

والذين يقولون : « تعييرك أخاك بذنبه أكبر إثماً من ذنبه » .

« وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين التياهين » .

وكثيراً ما يتساءل بعض الناس ، ولماذا لم تكن لأصحاب الرسول كرامات — كتلك التي تنسب بكثرة إلى الأولياء ؟

والجواب : أن أصحاب الرسول كانت لهم كرامات هائلة ، ولكنها لم تظهر بكثرة ، لأنه في أنوار الرسول يتوارى كل نور ويخجل .

فمن كراماتهم مثلا — كرامة عامر بن فهيرة — يرويها الإمام البخارى — وهى أنه كان فى بعثة للرسول تعلم الناس ، فغدر بهم الذين صحبوهم من المشركين وقتلوهم — وشهد قتلهم مشرك آخر سمى عامر بن الطفيل .

يقول ابن الطفيل هذا : ما إن وقع عامر بن فهيرة قتيلا ، حتى رأيت جسده يرتفع بعيداً بعيداً من السماء ، ثم يعود بسلام إلى الأرض !! — وكان هذا المشهد سبب إسلامه .

وحبيب : رضى الله عنه حين استشهد أصحابه ، وكانوا فى سرية لرسول الله ووقع هو أسيراً - وسجنه الحارث وهو من المشركين - فى بيته - تقول إحدى بنات الحارث هذا - لقد كنت أدخل عليه محبسه فأجده يأكل العنب ، وما بمكة كلها يومئذ ثمرة عنب واحدة - وما كان هذا إلا رزقاً رزقه الله إياه .

فلننظر إلى هذه البنت المشركة كيف واتاها التفسير الصحيح للكرامة حين قالت : وما كان هذا إلا رزقاً رزقه الله إياه .

وخالد بن الوليد : فى بعض معاركه تحداه بعض أعدائه الذين جاءوا

لمفاوضته أن يؤكد صدق دينه، بأن يشرب السم دون أن يهلك به ـ فسمى الله ثم شرب السم ـ سليما معافى بقدرة الله .

وهذا أسيد بن حضير — يقرأ القرآن ليلة فيرى كوكبة من المصابيح مقبلة نحوه من السماء ـ فيروعه المنظر فيكف عن القراءة ـ وفى الصباح يروى هذا الذى شهده لرسول الله ـ فيقول له عليه الصلاة والسلام (تلك الملائكة دنت لصوتك ولو ظللت فى قراءتك لأصبح الناس ينظرون إليهم) .

وهذا العلاء بن الحضرمى : فى إحدى معارك الحروب والردة بالبحرين يحدثنا أبو هريرة وابن عباس ـ وكانا تحت إمرته فى هذه المعركة ـ أنهم وقفوا أمام خليج فى البحر يفصله عن عدوهم الذى كان مرابطا فى جزيرة هناك . فصاح العلاء بالمسلمين الذين معه (سموا الله واقتحموا) واقتحم هو وتابعوه عابرين الخليج فوق خيلهم ـ مابل الماء منها إلا حوافرها واعتبر الصحابة أنفسهم هذا العبور بهذه العافية — كرامة لقائدهم العلاء بن الحضرمى .

وطبعا لن ننسى تلك الكرامة الباهرة ـ حين طوى لأمير المؤمنين سيدنا عمر رضى الله عنه ـ الزمان والمكان ـ فإذا به وهو فوق المنبر بالمدينة يرى جيش المسلمين على أبواب نهاوند ـ فى بلاد فارس ـ فيصيح بقائده (ياسارية ـ الجبل) فيسمعها سارية هناك ويعلو بجيشه إلى الجبل فينجون من العدو ـ ومن مفاجأة مهلكة كان يعدها لهم .

هذه الكرامات لهذا النفر من الصحابة قطرة من بحر ـ وكلها صحيحة تاريخيا ليس فى وسائل نقلها ما يوهن من قوتها وصدقها وصحتها ـ والذى كانت تظهر له كرامة كما رأينا ـ قطعا كانت له كرامات أخرى كثيرة .

لكننى كما ذكرت أولا (فى أنوار رسول الله كانت تتوارى أنوار الصحابة ـ وفى ضوء النهار تختفى أنوار الشموع) .

ولقد سئل الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه هذا السؤال ، فأجاب قائلا : فى عصر الرسول كان إيمان الناس قوياً ـ صادقاً ـ ولكن فى عصورنا هذه ضعف الإيمان وكثرت الفتن ـ فأصبحوا بحاجة إلى كرامة الأولياء تثبت إيمانهم وتقوى يقينهم .

ثم إن الله يؤتى فضله من يشاء ـ وقد أمر سيدنا موسى عليه السلام ـ وهو رسول الله ومن أولى العزم ـ أن يتعلم من الخضر وهو ليس رسولا .

ورسولنا عليه الصلاة والسلام يخبر عمر بن الخطاب ذات يوم ، أن ثمة باليمن رجلا صالحاً اسمه أويس القرنى — وينصحه إذا لقيه أن يسأله الدعاء — فإنه لو أقسم على الله لأبره - ويظل أمير المؤمنين مشغولا بلقاء أويس القرنى يسأل عنه كل وافد من اليمن حتى جمعتهما المقادير — فاحتفى به عمر وسأله كثير الدعاء — وحين هم أويس بمغادرة المدينة إلى الشام قال له عمر — انتظر أكتب لك توصية إلى واليها معاوية — فأجاب أويس — لا — إنى أحب أن أعيش فى غبراء الناس .

وبعد — فليس السبيل الأمثل لدحض خرافة أن تهدم حقيقة ـ وإذا تطفلت أعشاب ضارة على بستان يهتز بالثمار والبهجة والأزاهير — فليس سبيل تنقيته أن نحرقه كله ، بل أن ننفى عنه الأعشاب الدخيلة .

والتصوف الصادق باعتباره جوهر الدين وذروته — بما يركز عليه من إخبات لله — وإخلاص وثيق له — وجهاد موصول — من أجل

تزكية النفس وتطهير الحياة . هو بهذه المثابة بستان الله فى الأرض وجنة فى دنيا الناس .

٣ — ويقول فضيلة الشيخ حسنين مخلوف — إن التصوف فى الواقع تربية للنفوس وتدريب على الصبر ومشاق الطاعات ومجاهدة للنفس ، وهو معرفة لله ويقين وتعبد بشريعته وتعرض لهباته — كل ذلك مع العمل فى الدنيا — والدنيا كما قيل مزرعة الآخرة .

والتصوف لب الشريعة . وهو علم وتربية وعبادة .

ذلك هو التصوف النقى الذى لم يخالطه زيغ ولا شطط ولا جهل ولا ابتداع ، وهو تصوف العلماء والنساك ، العارفين بالله القائمين على حدوده ، المتمسكين بشريعته ، أمثال أبى سعيد البصرى وابن اسحق البلخى وابن سليمان الطائى وأمثال الإمام الغزالى .

هذا هو التصوف الذى سار مع الشريعة جنباً إلى جنب فى تكوين الشخصية الإسلامية الكاملة ظاهراً وباطناً — وهو التصوف الصادق .

ولكن هناك تصوفاً زائفاً ينتحله البعض ، وفيه شوائب كثيرة من تعاليم الباطنية الحلولية ، يجتذبون العامة ويخدعونهم ، وفيه إلحاد وإفساد للعقائد — ولقد كشفهم كثير من أئمة الإسلام ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم ، ولكن ما نراه ممن يتخذون الصوفية حرفة وتوارثوا فيما بينهم بدعا سيئة وشعارات زائفة ، وتقاليد منكرة جهلا بالدين الخالص أو تجاهلا ، طمعا فى متاع الدنيا فهؤلاء أدعياء آثمون .

ولقد ارتكب بعض المنتسبين للصوفية فى بلادنا وفى غيرها بدعا شنيعة أوهموا العامة أنها من لباب الدين والدين منها برىء .

ومنها ما يبدو فى حلقات الذكر من حركات غريبة — فلا أصل فى الدين لذكر الله بهذه الهيئات ، ولم يعرف عن السلف الصالح ، بل هو من البدع السيئة ، وهو من المحرم شرعاً ، خصوصا إذا أدى التزامها إلى اعتقاد مشروعيتها .

وقد استقر الآن فى عقائد العامة ودعوة الجهلة إليها ، ودفاعهم عنها أنها من الدين وهذا مما يوجب التحريم — أما ذكر الله حقيقة فهو خشوع القلب وحضور الفكر .

٤ — ويقول الدكتور محمد حسين الذهبى : الصوفية عندنا فريقان — فريق لا زال يمشى فى الطريق الصحيح على أساس كتاب الله وسنة رسوله لا يشغلون أنفسهم إلا بالقرآن وحديث الرسول — ولا يشغلون بشىء آخر ، وفريق أقحم نفسه على الصوفية فادعى لنفسه الولاية ، ونسب لنفسه الكرامات ، وتسلط على مريديه بشعوذات يحسبها بسطاء العقول كرامات — وهؤلاء ليسوا من الدين فى شىء ، وإنما هم قوم مخادعون يطلبون الدنيا باسم الدين ويروجون لأنفسهم .

والولى الحق لا يعلن عن نفسه ولا يعلن عن كراماته .

ويقول أيضا : إن أعداء الإسلام لما عجزوا عن إطفاء نوره ، لجأوا إلى وسائل خبيثة ليشوهوا جمال الإسلام — ووصلوا إلى غرضهم عن طريق أمور ثلاثة :

ادعاء التصوف — وادعاء التشيع — وتشويه الفكر الإسلامى — وهؤلاء قال عنهم الإمام محمد عبده : إنهم قوم التحفوا بالإسلام وتبطنوا الكفر .

وهناك كتب كثيرة من التراث مليئة بما لا يقبله العقل ، ولا يقبله الإسلام — وهناك من يؤمن بها وبما فيها من خرافات ويريد أن يحمل الناس على أن يؤمنوا بها كذلك ، لأنها منسوبة إلى بعض الأولياء .

ولابد أن تخضع للمنهج العلمى الذى لا يقبل من الأحاديث المنسوبة للرسول فى باب العقائد إلا ما كانت متواترة حتى يفيد القطع واليقين — وما كان منها متعلقا بالعبادات فلابد أن يروى مرفوعاً إلى الرسول بالسند الصحيح المتصل .

٥ — ويقول الدكتور محمد عمارة : إن للطاقات الإنسانية إمكانيات كامنة تفجرها الرياضات الروحية ، فتأتى بما هو غير مألوف وفق القوانين التى اكتشفها الإنسان — والإسلام يجيز عقـــلا حدوث الخوارق والكرامات .

فأذواق الصوفية وعلمهم الوجدانى — أمور لا يصح إنكارها ولكنها خاصة بمن تحدث له — لا يجوز له أن يحكيها أو يكتبها — فضلا عن أن يطلب من الغير أن يؤمن بها — ومن هنا فإن قول الأستاذ خالد محمد خالد — إن أصحاب الكرامات (يظهرونها لتثبيت إيمان الناس) يوهم أن لهؤلاء اختصاص الرسل ومهامهم — فالرسول يدعى الرسالة ويظهر المعجزة ليصدقه الناس — وبعد محمد صلى الله عليه وسلم فالحجة القرآن والشرع — وليست فى أصحاب الكرامات — وإعجاز القرآن قائم — الأمر الذى ينفى الحاجة إلى كرامات تثبت الإيمان، ودور العلماء والصالحين هو التنبيه والتعليم .

ثم يقول : إن أئمة المسلمين قد اتفقوا على أن إيمان المؤمن لا يستلزم الاعتقاد بظهور كرامة ما — على يد إنسان ما — بعد ظهور الإسلام ،

فظهوره بمثابة حد فاصل بين عصور وجوب الإيمان ، بالخوارق وعصر انتهاء هذا الوجوب .

وكما يقول الإمام محمد عبده : إن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى الله معين بعد ظهور الإسلام — فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة معينة على يد أى ولى كان — ولا يكون بإنكاره هذا مخالفا لشىء من أصول الدين، ولا مائلا عن سنة صحيحة، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم .

هذه هى آراء بعض رجال الدين حول التصوف ، عرضتها للوصول إلى الحقيقة ، هذا ونحن نشاهد اليوم ظاهرة أخرى أساءت إلى الدين ممن يدعون التصوف ، فنحن نرى ملابسهم القذرة المهلهلة باسم الزهد — والفرار من الزينة من أجل مخالفة هوى النفس — كما يعتقدون — وهذا افتراء على الدين ، وعليهم أن يعرفوا ما كان عليه السلف الصالح ليقتدوا بهم ، حتى لا يساء إلى الدين الحنيف الذى يدعو إلى النظافة ، والتجمل البعيد عن الغرور ، وإليكم طريقة السلف الصالح فى اختيار الثياب .

طريقة السلف فى اختيار الثياب(١)

كان كثير من السلف يحبون إظهار نعمة الله عليهم، ويرون أن قوله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ لا يمنع من ذلك ، ولهذا كانوا مع تجملهم بالثياب على أرفع درجات التقوى -- وإنما يكون لباس التقوى خيرا من لباس الزينة اذا كان التجمل به خاليا من التقوى ، ولذا وقعت المفاضلة بينهما ــ أما مع التقوى فلا مفاضلة ــ إذ التقوى حاصلة عند صالحيهم ، من تجمل منهم بفاخر الثياب ومن لم يتجمل ، ولا شك أن التقوى مع التجمل خير منها مع عدم التجمل ، لأن التقى المتجمل استطاع أن يضبط نفسه مع وجود ما يصرفه عن التقوى ، بخلاف التقى غير المتجمل فإنه لم يستطع أن يصرفها إلى التقوى وأن يضبطها إلا بالتقشف ــ ومن ثم قالوا ؟ إن الغنى الشاكر خير من الفقير الصابر .

ومع هذا فقد كان الغالب عليهم لبس الثياب المتوسطة ــ قال أبو الفرج : كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة . لا المرقعة ولا الدون ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد ولقاء الإخوان ، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحا .

وأما اللباس الذى كان يزرى بصاحبه ، فإنه يتضمن إظهار الزهد والفقر ، وكأنه لسان يشكو من الله تعالى ويوجب احتقار الملابس وكل ذلك منهى عنه . فإن قال قائل : تجويد الثياب هوى النفس وقد أمرنا بمجاهدتها ــ وتزين للخلق وقد أمرنا أن نكون أفعالنا لله لا للخلق -- فالجواب : أنه ليس كل ما تهوى النفس يذم ولا كل ما يتزين به للناس

---

(١) من أمجاد الرسالة المحمدية ص ٦٢

يكره وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو كان على وجه الرياء فى باب الدين .

وقد أخذ الحسن برداء فرقد — وقال له إن البراليس فى هذا الكساء إن البر ماوقر فى الصدر وصدقه العمل — فالملابس المزرية تحمل على احتقار الناس لصاحبها — ولقد توجه ابن عباس إلى الخوارج فلبس أفضل ثيابه وتطيب بأطيب طيبه — فلما رأوه فى زينته — قالوا يا ابن عباس بينما أنت خير الناس إذ أتيتنا فى ثياب الجبابرة ومراكبهم — فتلا قول الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ... ﴾ (١).

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

تعقيب

اختلفت آراء العلماء حول التصوف ـ فمنهم من يؤيد ، ومنهم من يعارض ولكل وجهة هو موليها ـ فكلهم حريصون على سلامة الدين وسلامة المتدينين .

وما كان اختلافهم إلا بدافع الغيرة على الإسلام ـ والحرص على توضيح الطريق الصحيح ، لمن أراد السلامة فى الدنيا والآخرة .

ولقد نادى بعضهم بالتمسك بالسلفية ـ واتباع منهج السلف باعتبارهم القدوة الصالحة ، وهدفهم هو التقرب إلى الله بعمل صالح لوجه الله (متبعين غير مبتدعين) والعمل الصالح الذى يتقرب به العبد إلى الله لابد أن يكون خالصا يراد به وجه الله فقط ، أى بعيدا عن الرياء والسمعة وأن يكون صوابا موافقا هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والذين يدعون إلى السلفية يقولون : إن السلفية هى التأسى بالرعيل الأول واقتفاء أثرهم، لأنهم الذين أخذوا الاسلام غضا من أقوال رسول الله ـ التى سمعوها منه مباشرة ودون واسطة ومن أفعاله التى شاهدوها ومن إقراره على مافعلوه أو قالوه . بحضرته عليه الصلاة والسلام ـ وهؤلاء يعترضون على الصوفية ويقولون : إنها بضاعة أجنبية مستوردة ودخيلة على المسلمين ـ تدعو إلى تعذيب الجسم بالحرمان لتحقيق تهذيب النفس الذى ينشدونه !

ثم يستدلون على إلحاد المتصوفة ، بما نسب إليهم من ألفاظ توحى بالإلحاد ! ونحن معهم نقول: لو أدى مايسلكه المسلم إلى إلحاده لوجب

عليه وعلى الفور أن يتنحى عن هذا السلوك حفظا لإيمانه من الضعف ـ وحرصا على إسلامه من الضياع .

ولكن لو دققنا النظر وأمعنا الفكر ، وقلبنا صفحات التاريخ وبحثنا عن بعض أولئك المتصوفة ، لوجدنا مسلكهم كان خالصا لوجه الله ، مقتفين آثار الرسول ومحاولين الوصول إلى مرضات الله ـ فبعض علماء التصوف يقولون : إن التصوف علم خاص بصفات الانسان ـ يبحث فى قضايا النفس والقلب والروح والأخلاق والسلوك ، والدعوة إلى دوام العلاقة بالله ـ حتى إن الشيخ المراغى (شيخ الأزهر السابق) كان يقول عن الغزالى (إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد بل يخطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدرته وقيمته) .

ثم يوضح نبوغه فى علم الأصول والفقه وعلم الكلام وعلم الاجتماع والفلسفة والتصوف ... الخ .

وكان ابن عطاء الله ـ جامعة علمية وله فى التراث الاسلامى أكثر من عشرين مرجعا ـ وتولى التدريس بالجامع الأزهر ، حيث تتلمذ على يديه كثير من أئمة العلماء ـ وفى مقدمتهم الشيخ (تقى الدين السبكى) إمام التفسير والفقه والحديث .

ومنهم الامام الحارث المحاسبى ـ وقد عاصره الامام أحمد بن حنبل وهو من أجل علماء الصوفية فى زمانه ـ وقد راقب المحاسبى فلم ينكر من أحواله شيئا ـ ولما سئل عن ذلك ـ قال : لأننى رأيته لما أذن المغرب تقدم فصلى ـ ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه وهو يأكل ـ فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم ، جلس وجلس أصحابه بين يديه ـ وقال من

أراد أن يسأل عن شيء فليسأل . فسألوه عن الرياء والاخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد بالآى والحديث . ولما مر هزيع من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ . فقرأ فبكوا وصاحوا وانتحبوا . ثم سكت القارىء . فدعا الحارث بدعوات خفاف ، ثم قام إلى الصلاة . ثم قال ابن حنبل « كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا وأستغفر الله العظيم »(١) .

وقد ربط المحاسبى بين العقل والعلم . وأسس الربط بينهما بالكتاب والسنة ، وعقد مقارنة بين الأصيل والدخيل فى كتاب (الرعاية)

ومنهم الامام شعيب بن شعيب الأنصارى . وكنيته أبو مدين . وهو اندلسى الأصل ، فقد كان إماما مجاهدا عالما ، حارب البدع والمنكرات ، وقادالتصوف إلى طريق الحق ، واتخذ سبيل العلم طريقا إلى الله ، واتخذ من عمل يده سبيلا للحياة .

وكان يقول لأبنائه : إن سبيل الحق يبدأ بالتوبة من الغفلة ، وأن طريق الله يبدأ بأداء الفرائض ، ومن أهمل الفرائض فقد ضيع نفسه .

ولابد لمن يسلك هذا الطريق من أربعة أشياء . الزهد والعلم والتوكل واليقين .

ومن محاربته للبدع التى شاعت فى عصره قوله (إذا رأيت الرجل يسير على الماء أو يطير فى الهواء ، فلا تعبأ به حتى تراه عند أمر الله ونهيه) .

---

(١) كتاب الموافقات — ويذكرها السبكى فى طبقاته .

وقد وضع معيارا للشيخ المتصوف الذى يقتدى به فيقول (الشيخ من هذبك بأخلاقه وأنار باطنك بإشراقه)

ومنهم الشيخ معروف الكرخى البغدادى ـ الذى ضلع فى علوم الشريعة ، وكان يسأله الامام أحمد بن حنبل وابن معين فى علوم الفقه والحديث .

لقد كان تصوفه علميا ، فهو صاحب أقدم تعريف للتصوف فقال :

(التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى يد الخلائق) .

(وإن الله إذا أراد بعبد خيرا ، فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الفترة والكسل ـ وإذا أراد بعبد شرا ـ أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل) .

وعندما سئل عن الحب ـ قال . المحبة ليست من تعليم الخلق وإنما هى من مواهب الحق .

ولم ينقطع عن العباد، بل اتخذ من الجهاد الاجتماعى طريق التصوف الواعى الرشيد ـ وقد توفى سنة ٢٠٠ هـ بعد أن ترك أثرا كبيرا فى التصوف ـ وله عبارته الخالدة (إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض) .

لقد نبع التصوف من تفاعل أنواع الجهاد ، ويشهد التاريخ للصوفية بأن لهم عيونا ساهرة تراقب كل محاولة للعدو ـ فإذا ما نامت أعين الحراس فان عيونهم لا تنام ـ فهم فى مراقبة مستمرة طوال الليل ـ لقد جاء الفتح الاسلامى بهـذا النوع العظيم من الرجال، الذين كانوا يتحركون أينما يتحرك الجند .

ففى مدينة الاسكندرية تمركزت الجيوش الاسلامية من أجل حمايتها وتأمينها من إغارات الأعداء البحرية ، ونزح إليها الكثير من المجاهدين المتصوفين، يرقبون العدو فى سهر دائب، وقلوبهم عامرة بذكر الله تعالى - وانتقل الولى المجاهد (أبو الحسن الشاذلى) ومعه أصحابه من الاسكندرية إلى المنصورة ، وأبى إلا أن يبيت فى خيام المعسكر يحفز الجنود ويشجعهم على القتال ، مع أنه قد جاوز السنين من عمره وكف بصره - فلم يثنه ذلك عن الجهاد .

وكذلك أبو العباس أحمد شهاب الدين (السيد البدوى) الذى عاش حياته مقبلا على العلم والفروسية، يشغل نفسه بالخلوص إلى بارىء الكون وتزود فى خلوته بنور العلم والهداية .

وحينما اشتدت الأزمة وأحاط بالوطن أعداؤه من الصليبيين والتتار استعد للجهاد ، ثم خرج للجهاد فى سبيل الله .

والشيخ عمر بن سعيد التيجانى - الذى فتح الكثير من بلاد أفريقيا وأدخل فيها الإسلام - وغيرهم كثير - فهم المجاهدون فى الحروب لإعلاء كلمة الله - فمارسوا الجهادين الذين تحدث عنهما الرسول (الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر) .

وفوق ذلك - فهم سعداء مهما قاسوا من همومهم :

يقول الواحد منهم مهما كان همه - إن على أن أطرق الباب - ثم بعد ذلك كل شىء فى مشيئة الله، والذى يحب الله - يحب كل مايأتى به - ونحن لانعلم الخير من الشر - فما يحدث اليوم ونحسبه شرا قد نجده خيرا غدا .

هؤلاء هم المتصوفون الحقيقيون الذين نشأ بفضلهم العديد من الدول كدولة المرابطين بالمغرب - فيجب فضح محاولة إلصاق الخرافات بالإسلام والتصوف .

ويجب أن ندعو إلى نبذ الخلاف بين الصوفية والسلفية ، تمهيدا لتوحيد الجهود أمام الأخطار المحيطة بالاسلام والمسلمين فى كل مكان

إن الصوفية هى الروح التى تحيا بها الدعوة إلى الله ، والصوفيون هم صناع القلوب - وإن على كل من يريد الخير للتصوف والاسلام - أن يعمل بقوة على مكافحة البدع والخرافات والعصبية العمياء .

فالصوفية فى أشد الحاجة إلى جهاد عنيف لمكافحة الدخلاء الجهلاء الذين لا يعرفون من الدين جوهره النقى وروحه الشفافة ، المتجرين باسم الدين المتحكمين فى عقول العامة والبسطاء ، بما يلفقونه من أحاديث مكذوبة وقصص مدسوسة على المتصوفين ، ويجب إبراز التعاليم الصوفية نقية خالصة من الشوائب ، ونشر التراث الصوفى المنبعث من التعاليم الدينية الصالحة والله يهدى إلى سواء السبيل .

خـاتمة

عرضت فى هذا الكتاب الكثير عن التصوف والمتصوفين، وأوضحت الطريق للحيارى لعلهم يهتدون إلى المسلك القويم . وحسب المتشككين فى التصوف والمهاجمين له ، ماذكرته من خلق الرسول صلى الله عليه وسلم وتبتله . فالتصوف خلق وتبتل له حرمته وكرامته .

وحق أولياء الله ، ممن حباهم الله بنعمه ، وقربهم إليه ، وأعطاهم مايشاءون وآمنهم من الخوف وحماهم من الحزن — أن يبقى لهم من التوقير والإجلال مادعانا الله إليه .

قال تعالى ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون - الذين آمنوا وكانوا يتقون - لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب) .

ولقد تعرضت لذكر بعض المتصوفة وحياتهم الروحية — كيف كانت حياتهم وكيف كانت عبادتهم - وكيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه من حب الله لهم وحبهم لله ، فقد سمت أرواحهم وعظمت منزلتهم وتحقق لهم ما أرادوه - أما الأدعياء فليس لنا بهم شأن - وأمرهم إلى الله - فالذين يجتذبون العامة ويخدعونهم بالتصوف الزائف ، لن يفلتوا من عقاب الله إن عاجلا وإن آجلا .

لأن التصوف النقى له قد سيته - فمن تصوف خشى ربه ، وتوجه إلى من أوجده، فيغيب عن نفسه ولا يرى أمامه غير من أوجده ، ويعيش فى

---

(١) الآيات ٦٢ — ٦٤ من سورة يونس

تذكر مستمر ـ قال تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾

فهل هناك حياة أقدس من هذه الحياة ؟ !

هذا وقد ذكرت حياة بعض الصوفية للعظة والاعتبار ، ولينسج العاشقون لله على منوالهم ، لعلهم يصلون إلى ما وصلوا إليه .

أما بعد ـ فالأمة الإسلامية المعاصرة لاتزال على الخير الذى أراده الله لها ، ولا تخلو من الصالحين الذين وردت أوصافهم فى كتابه العزيز ، وبحمد الله لا نزال نسمع الكثير عن الصالحين ، ونجالسهم ونلتمس منهم الأنوار التى يحملون مشاعلها للسالكين .

نسأل الله العلى القدير ، أن يجعلنا من أحبهم ، فأفاض عليهم الرحمات وسلك بهم طريق الرضوان .

إنه نعم المجيب ؟

المؤلف

محمد فتحى حافظ قوره

أهم المراجع

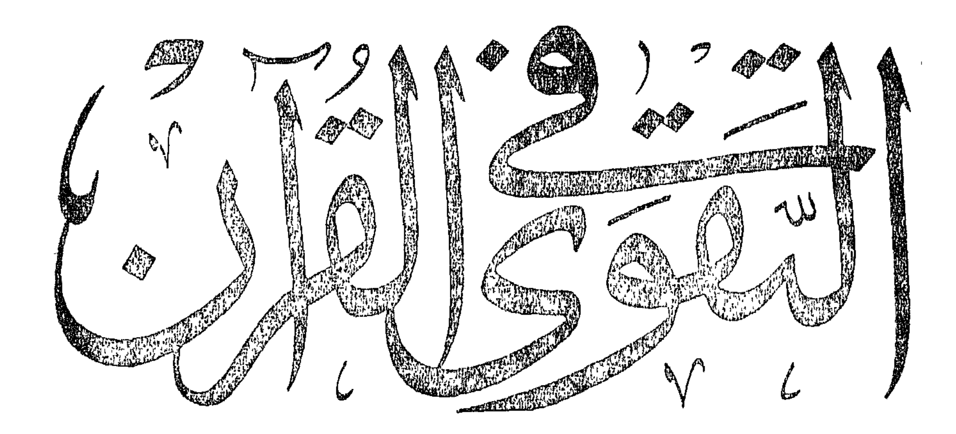
الكتاب	المؤلف
القرآن الكريم	
جامع الأصول من أحاديث الرسول	ابن الأثير الجزرى-تحقيق محمد حامد الفقى
إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى	أحمد بن محمد الخطيب القسطلانى
زاد المعاد	الإمام أبو عبد الله بن القيم الجوزى
الإسلام عقيدة وشريعة	الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت
لمحات من حياة الرسول	الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
الله	عباس محمود العقاد
عبقرية محمد	» » »
عبقرية الإمام على	» » »
رابعة العدوية	سنية قراعة
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	أبو نعيم الأصبهانى
مواقف مع الغزالى فى إحياء علوم الدين	أبو بكر ذكرى
الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية	العارف بالله عبد الوهاب الشعرانى
على بن أبى طالب	أحمد زكى صفوت
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جودة السحار
أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
حبيب الجهاد الإمام الحسين	عبد المجيد لحناوى
مرآة الإسلام	الدكتور طه حسين
فلسفة الأخلاق فى الإسلام	الدكتور محمد يوسف موسى

تهافت الفلاسفة	— للغزالى تعليق — سليمان دنيا
الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية	الدكتور محمود حب الله
الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى	الدكتور محمد البهى
الإشارات والتنبيهات — للرئيس ابن سينا	تعليق — سليمان دنيا
من أمجاد الرسالة المحمدية	الشيخ مصطفى الحديدى الطير
سفر السعادة	محمد بن يعقوب الفيروزابادى
صفوة صحيح البخارى	شرح الشيخ عبد الجليل عيسى
التقوى فى القرآن	محمد فتحى حافظ قورة
من توجيهات الإسلام	الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت
أنبياء الله	أحمد بهجت
حياة محمد	محمد حسين هيكل
الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد
ابن سينا بين الدين والفلسفة	حموده غرابه
الصلاة مدرسة الوعى الحضارى	عبد القادر أحمد
موطأ الإمام مالك	تحقيق — عبد الوهاب عبد اللطيف
تاريخ الفرق الإسلامية	على مصطفى الغرابى
الاستيعاب فى معرفة الأصحاب	يوسف بن عبد البر
أضواء على السنة المحمدية	محمود أبو رية
شرح الأربعين النووية	يحيى بن شرف الدين النووى
الموافقات فى أصول الشريعة	أبو إسحاق الشاطبى

تصويب الاخطاء المطبعية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	٣	وهذ	وهذا
٥	٢	تعال ا	تعالى
٥	١١	ر الخلط	والخلط
١٠	١٧	تجل	تجلى
٢٢	٧	لارله	لاإله
٢٧	١٤	والأرص	والأرض
٣٠	٧	ط محبتك	طعم محبتك
٣١	٥	الحو س	بالحواس
٣١	٦	الدر	الذى
٤٣	١٦	ويحبونه)	ويحبونه)(١)
٤٥	٧	عملا)	عملا)(١)
٦٣	٢٣	نخالق	خالق
٦٣	١٤	ينفذ	ينفد
٦٦	٨	الدفع	لدفع
٦٦	١٩	يقوله	يقول
٧٠	٦	من	من أن
٧٣	٩	وأبقيت	وألقيت
٨٢	١٢	نفسه	بنفسه
٩٣	٤	عسر لف	عشر ألف
٩٥	١٤	اليرموك	لليرموك
١٠٧	٤	تقنت	تيقنت
١٠٧	٤	ى — جديد	إلى الدين الجديد
١١٠	١	المهاصرين	المعاصرين
١١٢	٢	مستمرة	مستمر
١٢٢	٣	بذل	بذلى
١٢٣	١١	طالة	وإطالة

المؤلف :



يوضح طريق المحبين ممن يعشقون الله

وقد أشادت به المجلات الإسلامية - منها مجلة المسلم ، ومنبر الإسلام ، والوعى الاسلامى - بالكويت .

قالت عنه مجلة المسلم - فى عددها الصادر فى شهر المحرم سنة ١٣٩٦هـ - صفحة (٢٤) : -

من أروع ما أخرجته المطابع المصرية أخيرا - كتاب (التقوى فى القرآن) لمؤلفه الأستاذ الجليل - السيد/محمد فتحى حافظ نوره - وكيل المدرسة الثانوية للبنين بشبرا - وهذا كتاب نسيج وحده ، غير مسبوق فى أسلوبه ومنهجه ، وهو ضرورى لكل مسلم ، عالم أو متعلم أو مرشد أو مسترشد ...

فنحث على اقتنائه كل طالب لله عز وجل - وجزى الله المؤلف خير الجزاء .

وكتبت عنه مجلة منبر الإسلام فى عددها الصادر فى جمادى الأولى سنة ١٣١٦ ه (مايو ١٩٧٦) - صفحة (٨٨) - وكان مما قالته : -

تناول المؤلف الأستاذ محمد فتحي حافظ قوره في هذا الكتاب — الجانب الروحي في العبادات التي يتخذها المسلم وسيلة التقرب إلى الله ، وفي المعاملات على اختلاف أنواعها — دون التعرض إلى مسائل فقهية ، قد تختلف المذاهب والآراء فيها، حتى يبدو نور الإسلام واضحا جليا أمام معتنقيه والمتجنين عليه .

ولقد أخذ بيد الشباب الحائر إلى نور الهداية ـ وأوضح لهم ما يجب عليهم إزاء الموجة الالحادية ، الزاحفة ، وتقاليد الغرب التي تمجها الفطرة السليمة ، ويأباها الدين القويم ، ورسم لهم طريق الجهاد بنوعيه ،وأوضح لهم شعار النصر الذي هز جوانب الحصون المنيعة في سيناء .

ومما يسترعى الانتباه ـ الإفاضة في الحديث عن الرحلة الربانيه ـ فقد رافق الحجاج منذ اللحظة الأولى التي يبدأون فيها أعمالهم ، حتى الخطوة الأخيرة ـ موضحا جميع المناسك والأدعية المأثورة ، وغير ذلك من آداب الزيارة ، وما يشعر به الحاج من المتعة الروحية ، بطريقة فيها تشويق وحنين .

لهذا فقد تعرض إلى مواقف ربانية (في ليال قضاها مع الله) وما نعم به من الفيض الالهي والصفاء الروحي . وقد ذكر جوانب شتى مما يتعرض له الداعون إلى الله ... بالاضافة إلى بيان مكانة العلم والعلماء ، وأثر تلاوة القرآن في تهذيب النفوس ،مع توضيح أثر نور الاسلام في هداية المنحرفين والملحدين ، وكيف اعتنق الاسلام من كان يرميه بالجمود .

ولهذا ـ كان الكتاب ضروريا لكل مسلم — عالم أو متعلم — ففيه الغذاء وفيه الشفاء .

وجزى الله من دعا إلى تقواه خير الجزاء .

كما أشادت به مجلة الوعى الاسلامى - والتى تصدر فى الكويت وذلك فى عددها الصادر فى شهر المحرم سنة ١٣٩٦ ص ١٠٢ - ومما قالته هذه المجلة : التقوى فى القرآن - كتاب من تأليف الأستاذ محمد فتحى حافظ قورة - يتناول موضوعا تشتاق كل النفوس إلى معرفته ، والاطلاع على كل ما يكتب عنه ، وهو موضوع (التقوى) كما يصورها القرآن الكريم .

وقد عنى المؤلف بالجانب الروحى فى مجالات التقوى ، وفى العبادات التى يتخذها المؤمن وسيلة التقرب إلى الله ، وفى المعاملات على اختلاف أنواعها ، ويتضمن الكتاب نبذة عن حياة بعض الأنبياء ، وتفصيل جوانب عديدة من حياة إمام المتقين .

كما تطرق المؤلف إلى الإلمام بصفات عباد الرحمن - كما وردت فى القرآن الكريم ، وأفاض فى الحديث عن الرحلة الربانية - رحلة الحجاج إلى بيت الله الحرام .

والكتاب مطبوع بالحجم الكبير - ومن نشر مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

ملحوظة :

عرض هذا الكتاب على الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية . إدارة البحوث والنشر بالأزهر — لفحصه وإبداء الرأى فى صلاحيته للنشر والطبع لأهمية موضوعه .

وقد وافق مجمع البحوث على طبعه ونشره — وكتب أحد علمائه تقريرا مطولا عنه نشكره عليه .

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٣٣٢١ / ١٩٧٧
الترقيم الدولى : ISBN ١٩٧٧ - ٧٠٠١ - ٢٨ - ٢

